رياض خليف

علاّلة الزّبني

رواية

طبعة ثانية منقحة

تصدير

" سرّح عيونك عبر الأحمر القاني

واسأل أذي تونس أم دار لقمان؟ "

منصف الوهايبي

ليست فاتحة الرّواية

غيوم ربيعيّة

ربيع2011

1

ألقيت الجريدة على الطّاولة بعنف ثمّ قلت لعثمان :

- الأمور ليست على ما يرام. . .

ردّ مستغربا و ربّما مستهجنا:

- الثّورات لا تثمر إلّا بعد سنوات طويلة...

قاطعته بغضب:

- دعنا من هذا التّبرير الذي سئمناه. . .

ساد بيننا صمت ثقيل . قطعه عثمان قائلا:

- خالي الحاج عبد السّلام استأجر سيّارة وذهب إلى مدينة المنستير ليحضر إحياء ذكرى وفاة حبيب بورقيبة.

- وهل مازال الحاج عبد السّلام يهتمّ بالسّياسة ؟

- هو أيضا عاد إلى الحديث عن السّياسة وعن الحزب الذي تركه منذ سنوات وعن رائحة الانهيار التي اشتمّها منذ السّنوات الأخيرة في حكم بورقيبة. يلذّ له أن ينزل من القرية ليشهد الوقفات الاحتجاجيّة والاجتماعات الشّعبيّة وحلقات النّقاش التّلقائيّة التي تجمع النّاس هذه الأيّام. لقد حضر

محاضرات أحمد بن صالح ومصطفى الفيلالي وحمّة الهمّامي وعثمان بلحاج عمر وأحمد نجيب الشّابي [1].

صمت عثمان قليلا ثمّ أضاف:

- لقد تذكّره سي الفيلالي واستقبله بالأحضان. كانت بينهما علاقة ما في السّنوات الأولى للاستقلال حينما كان مصطفى الفيلالي وزيرا للفلاحة. قال لي الحاج إنّه يعرف سي مصطفى وقريته القريبة منّا جغرافيّا وتاريخيّا ويعرف والده وإخوته وأولاد عمومته وله معهم ذكريات كثيرة تعود إلى أيّام "العكري"[2]. وقد شكّل هذا اللقاء مناسبة أبهجت الخال وأشعرته بالفخر واعتبرها ردّ اعتبار له بعد عقود طويلة. فليس من السّهل أن يتذكّره سي مصطفى ويختلي به لدقائق أمام أنظار هؤلاء المتوثّبين استعدادا لتسلّم حكم البلاد.

لكنّه عاد متوتّرا من محاضرة أحمد بن صالح. لم يتمالك نفسه وقاطعه لمّا كان يتحدّث عن تجربة التّعاضد وما وقع له وعبّر عن استيائه بصوت عال .

---

[1] عقب 14 جانفي زار هؤلاء دار الثّقافة بسيدي بوزيد وقدّموا محاضرات مختلفة وسط عدد هام من الحاضرين.

[2] العكري: تسمية شعبيّة لفرنسا الاستعماريّة

2

أحمد بن صالح أسعفته الأيّام ليدرك عهدا جديدا ويعود إلى المشهد محاضرا ومساهما برأيه. بدأ محاضرته بقراءة مقاطع من مقال قديم كتبه في الخمسينيّات عن قمّودة الاسم السّابق للجهة،مشيرا بذلك إلى الماضي ومذكّرا بدوره في نشر الزّراعات بالجهة وبعث معمل للطّماطم. وقال إنّ القدر لم يخطئ حين اختار أن تنطلق الثّورة من هذا المكان . ثمّ تحدّث عن المجلس التّأسيسي الأوّل الذي ساهم فيه باعتباره محرّر الدّستور قائلا:" كنت أحلم بنظام برلماني يكون وفيّا لمطالب شهداء 9 أفريل وصرخات الزّعيم علي البلهوان. وفضّلت أن يكون المجلس مراقبا للحكومة وأن يكتفي الزّعيم بورقيبة برئاسة البرلمان. ولكنّ هذا الرّأي لم يؤخذ به وتكفّل بورقيبة برئاسة الحكومة. " أثار هذا الكلام اشمئزاز الحاج عبد السلام فهو لا يتحمّل انتقاد الزّعيم بورقيبة على الإطلاق و بدأ الغضب يلوح على وجهه وتتابعت زفراته.

واصل بن صالح الحديث متطرّقا إلى تجربة التّعاضد. فاعتبر أنّ القول بكارثيّتها مغالطة تاريخيّة وبيّن أنّها لم تكن تجربة ارتجاليّة بل كانت مدروسة بعمق ومستوحاة من مخطّط اتّحاد الشّغل وقد حقّقت نجاحات كبيرة. ولكنّها أفشلت. وأضاف قائلا:" من اشتركوا في التّعاضديّات لم يجبروا على ذلك واحتفظوا بملكيّتهم الفرديّة. و من يقول إنّ الناس فقدوا حرّيتهم كذّاب ومجرم. لكنّ الخطأ كان في قرار تعميم التّعاضد الذي اتّخذه بورقيبة. . . "[3]

استشاط الحاج عبد السلام وتمتم ثمّ وقف رافعا يده وصوته مطالبا بحقّ الرّد ومثيرا جلبة داخل القاعة لكنّ المنظّمين هدّؤوا من روعه وأسكتوه.

[3] التصريحات الواردة من محاضرة أحمد بن صالح في دار الثقافة بسيدي بوزيد

3

خطر ببالي النّاصر الشّرقي. فسألت عثمان:

- وأين الشّيخ النّاصر؟ كيف عاد إلى الحرّيّة بعد سنوات الاعتقال؟

- هو في تمام السّعادة. استعاد عافيته و صحبته و عاد إليه النّاس و أصبح يزوره بعض أنصار الحركة علنا...

- وهل حضر محاضرة راشد الغنّوشي في دار الثّقافة؟

- كان في الصّفوف الأولى .

انضمّ عبدالله المسرحي إلى مجلسنا .لم يشرب شيئا، لا قهوة ولا شاي . كان متوتّرا ومستنفرا بدوره. صافح عثمان ببرود وظلّ صامتا .

اقترب منّا نادل المقهى وقد بدا على وجهه اصفرار شديد وهمس:

- أصبح علاّلة اليوم في المقهى. . .

- علاّلة؟

- وهل مازال يستطيع مجالسة النّاس؟ ألا يخجل؟

ردّ :

- لم يمسسه سوء. كأنّ شيئا لم يحدث. ما تغيّر فقط أنّه كان يأتي إلى هذا المكان أو يمرّ عابرا فيحيطون به ويتشبّثون به ويحرصون على تذكيره بمطالبهم أمّا اليوم فجاء وحيدا ولم يقترب منه أحد . اختفى أصحاب المصالح و المطامح.

أطلق عبدالله زفرة ثم تمتم:

- كلّهم مازالوا أحرارا وقد يعودون قريبا من أبواب جديدة.

انتابنا قلق شديد وتأفّفنا. بحثنا في الأفق مليّا عن هذا الوطن الذي خلنا أنّنا عثرنا عليه. بحثنا عنك يا وطني حدّ البكاء والكوابيس. مازلنا نقبع جميعا في حالة انتظار. تونس عروسنا زوّجناها للحرّية ولدماء الشّهداء.

كأنّنا في أعقاب عرس بدوي تقليدي في هذه الرّبوع . تشرئبّ الأعناق بعد صمت الموسيقى انتظارا لشيء ما لم نكن ندركه عندما كنّا صغارا . كم هي شبيهة تلك السّاعات التي يقضّيها الأهل في الانتظار بهذه الشّهور التي تمرّ بنا! رقصنا في الحفل. جاء المشاغبون و أثاروا فينا الفزع. ركضنا خلفهم

بالهراوات والعصي. أدخلنا عروسنا بيت الزّوجيّة الجديد ومكثنا ننتظر زغاريد طويلة ورقصة جديدة.

طال الانتظار ولم تخرج عروسنا بعد. لم تطلّ الخضراء التي نريد،الخضراء التي نحلم بها.

شربنا أكثر من قهوة وقرأنا أكثر من جريدة وطفنا بأكثر من حكاية و بأكثر من وجع. ولم يتسرّب إلينا الملل والكلل. جميلة هذه الأيّام التي كثرت فيها الأحاديث والحكايات وفتحت خزائن الأسرار والذّكريات . إنّه زمن الحديث بطلاقة وحرّيّة. الجرائد محشوّة بعشرات الشّهادات الحقيقيّة والمزيّفة عن الماضي و عشرات الحوارات مع شخصيّات منسيّة أو كانت ممنوعة. والجلساء يتحدّثون عن بطولاتهم و مواقفهم . . . فجأة شاهدنا القامات تتزاحم والخطى تتسارع في اتّجاه مقرّ الولاية وسمعنا الحناجر تهتف وتصاعد دخان أسود كثيف. راج أنّ الوالي[4] غادر استجابة لطلب المحتجّين. سارعنا بدورنا والتحقنا بالحشود الغفيرة. كان الأستاذ حمّودة

---

[4]غادر أحد الولاّة منصبه بعد أيّام من تعيينه استجابة لضغط الجماهير التي طالبته في اليوم المذكور بالرّحيل.

يخطب في الجماهير ويدعو إلى مواصلة الثّورة حتّى تحقيق أهدافها.

و كان صوت الغاضبين يزلزل المكان:

- الشّعب يريد إسقاط النّظام.

صفّق عثمان مع المصفّقين . فهو يذكر الأستاذ حمّودة جيّدا. لعلّه من آخر الوجوه التي ظلّ يحتفظ بذكراها من فترة الدّراسة. ترحل ملامحه بذاكرته إلى تلك الأيّام حين كان نقابيّا يتردّد اسمه بفخر لدى التّلاميذ.

انتحى بي عبد الله ركنا منفردا وقال بصوت خافت:

- هذا الذي يخطب الآن أحد الرّاكبين على الثّورة. أعرفه جيّدا. . .

قلت :

- ولكنّه كان...

ضحك عبد الله و هو يردّد:

- كان...إيه كان...

و أضاف:

- كان ولكنّه باع مع من باع...

كان نقابيّا شرسا. و لكنّه ألقى المنديل منذ سنوات، مبرّرا موقفه بأنّ التّغيير يكون من الدّاخل و بالحكمة و الكلمة الحسنة و أنّ زمن الإيديولوجيا والأحلام القديمة قد ولّى. صار يعتبر الماضي مراهقة سياسيّة .

تلقّفه علاّلة و احتضنه. أوصى به خيرا و صار يخصّص له وقتا مهمّا من جلساته ويوجّه له الدّعوات لحضور الاجتماعات باعتباره من الشخصيّات المعتبرة التي يزيّن بها النّظام واجهته. فضمّه بيسر إلى قائمة دماه التي يحرّكها هنا وهناك.

صمت عبدالله برهة ثمّ أعادها:

- كان ...إيه كان...

هذه الجملة الرّاسخة في الذّهن، ترنّ في ذهني منذ زمن بعيد حين كان الأستاذ عيّاد يدرّسنا قصيدة "زوجك المنصور قد أضحى مهانا" التي كانت مدرجة في كتاب النّصوص ..."

ثمّ أضاف:

- الأستاذ عيّاد الذي يعدّونه الآن من معتوهي المدينة هو الثّوريّ الحقيقي. هذه المدينة قاتلة. لا تصدّق أكثر المتكلّمين بأصوات عالية هذه الأيّام.

لم اهتمّ بحديثه عن عيّاد و عدت به إلى الأستاذ حمّودة فقلت:

- لعلّها افتراءات، فالتّشويه و الأراجيف عملة رائجة.

قال بكلّ صرامة:

- ليس لديّ أدنى شكّ ...انضمّ إلى الجوقة منذ زمن وبات يحلم بالمنصب وبالسيّارة الفخمة التي سيقتنيها وصار متشدّدا في الدّفاع عن بن علي وعن السّابع من نوفمبر. تردّد في نوفمبر الفارط أنّه ألقى محاضرة في لجنة التّنسيق لتمجيد النّظام. وأشيع في الكواليس أنّه سيعيّن في بداية السّنة في منصب هام. وهاهو الآن يخطب في الجماهير الثّائرة ويسبّ الأزلام.

عثمان الشّرقي

ذات" سمرقند". . .

مازلت أذكر لقائي الأوّل بعثمان. كنت منزويا داخل مقهى سمرقند[5]. أنا أعشق "سمرقند الدّاخل "[6]مثلما يحلو لي تسميتها وأكتب على طاولاتها بشراهة،رغم أصوات أحجار "الدّومينو" وعيون الوشاة وتطفّل بعض الرّوّاد أو الجلساء ممن تتطلّع أعينهم إلى الأوراق.

انزويت يومها داخل المقهى ومعي وليمة قراءة. صحيفة تونسيّة يوميّة أخفيت وسطها صحيفتين أسبوعيّتين لا تستحبّ قراءتهما في الفضاءات العامّة ومنها هذا المقهى الذي يعجّ بالأعوان السّرّيين والمتعاونين معهم .

سمرقند: مقهى شعبي شهير في مدينة سيدي بوزيد كان يرتاده عدد من سياسيي الجهة ونقابييها.

المقاعد الداخا ة للمقهى الذي يضم مقاعد خارجية تنتشر قبالة .

. . . دنا منّي و تهالك على المقعد المقابل ثمّ طلب تمكينه من الجريدة البيضاء [7]التي لمحها عندي. سلّمته الصّحيفة وكلّي ارتياب في أمره. تسلّمها وتفحّصها مثرثرا. التهم كلماتها حرفا حرفا. كان يقرأ ويتأفّف:

- بلاد تمضي نحو الجحيم وهم يزعمون أنّ الطّقس ربيعي والعصافير تزقزق...أين هم ممّا يجري ؟ اعتقالات وإضرابات جوع وتقارير منظّمات حقوق الإنسان واحتجاجات هنا وهناك وهم يناشدون ويباركون...

تلك الأنباء يخفونها حتى إذا كشفتها القنوات العالميّة وتحدّثت عنها وتسرّبت إلى النّاس يسارعون بالنّفي والتّباكي:" أوضح مصدر رسمي أنّه لا أساس لما روّجته بعض الأطراف الحاقدة على تونس و رقيّها و نجاحاتها وفي مقدّمتها قناة الجزيرة...". ويردفون ذلك ببيان صادر عن الحزب الحاكم أو أحزاب الموالاة يشيد بالإنجازات العظيمة ويؤكّد سلامة المسار الدّيموقراطيّ ويدين هذه الممارسات التّضليليّة التي

---

[7] جريدة الموقف التي يديرها أحمد نجيب الشابي وهي ناطقة باسم حزبه الحزب الديموقراطي وكانت تتعرض للمضايقة من طرف السلطات لما يرد فيها من أخبار ومقالات .

تستهدف تونس وقيادتها. ونصحو صباحا على صوت قارئ الأخبار وهو يحتجّ ويدين "الاستقواء بالأجنبي" والمؤامرة التي تتعرّض لها البلاد.

قبع حذوي عثمان وأطال مجالستي. لم أكن مرتاحا له فهو غريب عنّي وما أكثر الغرباء الذين يقتحمون مجلسك أحيانا لسبب أو لآخر! وما أخطر هؤلاء الجلساء الذين يبادرونك منذ اللّقاء الأوّل بلعن النّظام! فهم يثيرون الرّيبة عادة ويتجنّبهم النّاس. أكثرهم يشتغل صيّادا. يصطاد الأخبار والمعارضين بهذه الطّريقة.

هم قوم "أستفيد" ينتشرون في كلّ مكان، في المقاهي والحانات والأسواق والدّكاكين والإدارات والمعاهد والجامعات والمستشفيات ومحطّات النّقل العمومي ودور الثّقافة وفي المساجد أيضا. لا تفوتهم شاردة ولا واردة. تلهج أقلامهم بتلك الجملة الشّهيرة " أستفيد أنّ المدعو. . . " ومن هؤلاء يتناسل المتطوّعون والهواة ممّن يرغبون في توجيه ضربات لأعدائهم وترنّ توقيعاتهم بأسماء سرّيّة مثل"

فاعل خير " و" مواطن صالح ". يستهدفون الجميع. لا ينجو منهم المقرّبون من النّظام أيضا. هم أيضا ينالون نصيبهم.

خطر لي أن يكون عونا سرّيّا أو "سرطيّا". تلك التّسمية التي يستعملها النّاس بخوف كلّما لمحوا أحدهم. و لكنّه لم يذهب بلا رجعة ولم يكن وجهاعابرا. عاد لاحقا وجالسته في المدينة و صرت أنتظر قدومه من قريته، مرتديا لباس العمّال الأزرق. وصرت أحتفي به كلّما حلّ. وزالت الرّيبة والشّكوك رغم إيحاءات عبد الله المسرحي الذي يردّد دوما ولأسباب لا أعرفها:

- عثمان لا يؤمن له جانب وهو مستعدّ لبيع كلّ شيء مقابل بعض القوارير.

محاولة لكتابة بورتريه "عثمان "

" وحدك تنفخ في صورة عثمان وتصنع منه زعيما. ستندم يوما و تكتشف الحقائق. "

هكذا قال عبدالله بعد أن قرأ هذه المحاولة ثمّ أشاح عنّي بوجهه...

***

ينزل من شاحنة نقل ريفي قديمة، قادمة من وراء الجبال وعبر الطّرقات الوعرة أو "نازلا من نخلة الجرح القديم إلى تفاصيل البلاد" مثلما يقول محمود درويش عن أحمد الزّعتر. (ولعلّ هذا المقطع هو ما يستفزّ عبدالله)

يذرع شوارع مدينة سيدي بوزيد ويمرّ بكلّ مقاهيها ويرتاد حاناتها. يجالس من هبّ ودبّ ويخوض مع الخائضين في كلّ الأحاديث ويهرع إلى كلّ الحلقات البشريّة التي تتكوّن من

حين لآخر هنا أو هناك وتجمع الفضوليّين وهم يتابعون حادث سير أو معركة أو يتحلّقون حول بائع يعرض بضاعة نادرة. وكان متأهّبا دوما للاستجابة لأوّل دعوة ترد عليه للذّهاب إلى إحدى الحانات المنتصبة في هذه المدينة. لا يرفض طلبا لباحث عن نديم. يصطاد بدوره النّدماء وخصوصا أولئك الذين يدفعون نيابة عنه والذين لا يزعجهم أن ينفقوا أموالا طائلة في جلساتهم.

استمرّت علاقتي بعثمان وتوطّدت. و كثيرا ما كانت تجمعنا بعض ليالي السّهر. ننصت إلى أولاد المناجم والبحث الموسيقي وناظم الغزالي والشّيخ إمام وفرقة العاشقين الفلسطينيّة وغيرهم ونقرأ ما توفّر من قصائد محمود درويش ومظفّر النواب وفواصل محمد الصّغيّر أولاد أحمد ونقضي اللّيل في غياهب الحلم و الذّاكرة.

آه يا ليالي عثمان. . .

كم غنّى وكم بكى وكم ضحكنا ضحكا بلا حدود وكم أعاد سرد أحلامه و مغامراته.

"اللعنة. ليس لي هذا الحلم. هذا حلم تلزمه الشهادة العلميّة التي حرمنا منها."

كم تمنّى عثمان لو كانت له شهادة علميّة تمكّنه من أن يصبح ضابطا كبيرا في الجيش!

حينما يدخل دنيا الهذيان أذكّره بهذا الحلم. . .

- وماذا ستفعل لو صرت ضابطا كبيرا؟

- أحاصر قصر قرطاج وأصدر بيانا عبر التّلفزيون. أعلن الاستيلاء على الحكم... تعود سكينة صاغرة وتجثو تحت قدميّ ويركع علاّلة ويرسل الوسطاء كي يتقرّب منّي وربّما يصبح من وشاتي. . .

- وهل ستستجيب له؟

- أبدا... سأسجنه إلى الأبد. بل ربّما حكمت بإعدامه رميا بالرّصاص. . .

- وسكينة؟

- ستصبح سيّدة أولى في البلد. . .

نضحك ضحكا طويلا:

- لا عيب في ذلك. أستاذة أفضل من حلاّقة. . .

- ولكن هل ستطلق يدها ويد والدها العمدة بشير مجددا؟

يضحك ويقول:

- العمدة بشير سيوضع أيضا في الإقامة الجبريّة. . .

يهذي عثمان ويحلم. . .

يحدّثني عن حبيبة العمر سكينة ابنة العمدة التي مازالت في القلب رغم السّنوات البعيدة .فيستعيد الحلم ويعود للتّفكير في أبواب الوصول إليها وإعادة المجد الذي مازال مرسوما في ذهنه. هو يعرف جيّدا أنّ الأمر قد قضي لكنّه يريد أن يحلم. يكفيه فقط أن يحلم. يحلم بانقلاب عاطفي على حدّ تعبيره ويصرّ على أنّها ستكون من نصيبه في النّهاية ولكن بماذا ستنقلب يا عثمان؟ بأيّ مال وبأيّ جاه وبأيّ ذكريات؟؟؟

****

يستبدّ بعثمان حزن عميق وإحساس بالقهر والظّلم .

... يتأمّل البستان الكبير الذي افتكّ من خاله وصارت تخرج منه شاحنات الخضر ويترقرق فيه الماء وحوله تمتدّ الحقول الجرداء و أشجارها المنكسرة الذّابلة. ويتألّم وهو يرى دار

الحاج الشّرقي التي كانت منارة قد صارت خرابا، ويتذكّر الماضي والأحلام ونادية الصّغيرة التي كانت تتشبّث به وتناديه بحرارة:" عمّي. . . عمّي" وصارت الآن لا تنتبه لوجوده ولا تلقي عليه مجرّد سلام بسيط. يتذكّر الشّيخ النّاصر وهو يخرج إلى الجامع ليؤمّ الناس. يتذكّر سكينة التي كانت تملأ قلبه. يتذكّر كلّ ذلك فيزداد نقمة وغضبا. يطلق زفرة طويلة لا تكاد تنتهي:" دمّرنا ابن القرية. . . دمّرتنا يا علاّلة . "

من ذاكرة عثمان الشّرقي

1

ترتسم في ذاكرتي المحطّة القديمة التي كانت وسط المدينة وتتراءى لي أطياف المتسوّلين الذين كانوا يصخبون في أرجائها وينامون في حواشيها ويقضّون أيّامهم في مطاردة المسافرين طمعا في بعض الملاليم. و يرفرف شبح أخي النّاصر كلّما ذكرت هذه المدينة وبداياتي معها.

أطير إلى خريف بعيد. كانت تلك المرّة الأولى التي ولجت أقدامي هذا المكان. كنت أحثّ الخطى خلف أخي النّاصر . وهو يأخذني إلى عبد الجبّار بلّلعج المصوّر القديم بالمدينة استعدادا للالتحاق بالدّراسة الثّانويّة، مسرورا بنجاحي وظفري بشهادة"السيزيام"في جوان الفارط. الصّور الشّمسيّة يطلبونها بكثافة في بداية السّنة الدراسيّة. هذه للمبيت وتلك للقسم الخارجي وربّما للأمن. . .

أتذكّر أخي النّاصر قبل أن يزحف الزّمن ويمزّقنا. تتراءى لي صور طفولة عابرة و مشاهد صفاء لم تبدّدها سنوات الألم والجفاء. أتذكّره وهو يمسك بيديّ ويهيّئني للعودة المدرسيّة ويرابط في هذه المدينة حتّى يستكمل إعداد وثائق ترسيمي وينتظر قبولي بالمبيت. كان الأمر يتطلّب أيّاما فنضطرّ للإقامة في مقام الوليّ الصّالح سيدي بوزيد تجنّبا لصعوبات التّنقّل. فقريتنا نائية ومواصلاتها نادرة ومن الصّعب أن نغادر المدينة بعد العصر ثمّ نعود فجرا. كان المقام ملجأ أهل القرية ممّن تضطرّهم ظروف قاهرة إلى قضاء لياليهم فيه.

السّنوات أفسدت ما بيننا. . .

أصبح يتجاهلني ولم يعد يهتمّ بأمري. كان غاضبا من أفكاري. وازدادت علاقتي به توتّرا بعد انقطاعي عن الدّراسة وانضمامي إلى عالم الخمر.

كان يصرخ في وجهي:

- دعك من الخمر. . .

وكنت أقول له بكل حدّة:

- هذه أموري الشّخصيّة. . .

- القرآن نهى عنه. . .

- لا نصّ في القرآن يوضّح ذلك. يوجد فقط نهي عن الاقتراب من الصّلاة في حالة السّكر. . .

تغضبه هذه الأفكار فيتكلّم بلهجة صارمة:

- هذا فسق وكفر. . .

أجيبه بهدوء:

- أنا عقلاني. أنت وأمثالك تستغلّكم السّلطة لتبرير مواقفها، "الدين أفيون الشعوب".

تنتهي المجادلة عند الوالدة محبوبة ويكشّر أخي النّاصر عن أنيابه أيّاما ويقاطعني ويظلّ متربّصا بي ويصبح خالي عبد السّلام بديلي وملجئي. هو من يمدّني بمصروف التنقّل الأسبوعي من القرية إلى المعهد وهو من أستنجد به ليرافقني إلى المعهد لتسلّم بطاقات الدّخول.

لم يكن أخي النّاصر يرتاح إلى خالي عبد السلام. كان بينهما نوع من الجفاء. فالخال كان من رجال الشّعبة وكان إلى حدّ سنوات قليلة من الحسّائين الكبار، ذوي الشّوارب المفتولة. يحتسي خمور القوارير الحمراء بلا حدود. ولم ينقطع عن

هذه العادة إلّا في السّنوات الأخيرة. ومازال الكبار يتندّرون بمغامراته وحكاياته الخمريّة. و هذا ما لا يطيقه أخي النّاصر فهو إمام القرية و شيخها ولا يتسامح في هذه المسائل. و كان لديه نفور من الشّعبة والحزب وبورقيبة و العمدة بشير. لا يذهب إلى اجتماعاتهم التي تنعقد في القرية. ويماطلهم في دفع معاليم الانخراطات ووصولات التّبرّعات التي يفرضونها على الجميع.

2

أحبّ خالي عبد السّلام على خلاف أخي. لا أذكر له غير مواقف تتّسم بالشّهامة. هو لم ينس أمّي محبوبة حدّ اللّحظة. ظلّ واقفا معها في السّرّاء والضّرّاء، قائما بواجب الأخوّة تجاهها رغم تراجع وضعه المادّي وشبح الفقر الذي يقترب منه ومازال كلّما جنى المحاصيل الفلاحيّة يخصّها بنصيبها . لولاه لضاعت وجاعت في هذه السّنوات البائسة التي تمرّ بها عائلتنا. هي مريضة وتحتاج إلى أدوية كثيرة. استفحلت أمراضها وعجز الأطبّاء عن تقديم حلول لها حتّى سئمت الذّهاب إليهم. مستوصف القرية لا يقدّم للمريض شيئا غير بعض أقراص الأسبرين وما جاورها من الأدوية البسيطة، وهو موصد أكثر الأيّام وتجهيزاته قليلة وقديمة. وأمّا المستشفى الجهوي بسيدي بوزيد فمعاناة لا تحتمل. كلّ الأهالي يتحدّثون عنه بألم.

تقبع الوالدة محبوبة وحيدة في البيت. تصارع أمراضها المزمنة. أرملة بلا سند. الوالد توفّي منذ أعوام وأنا أعمل أيّاما قليلة في حظائر البناء وأنفق مداخيلها في الشّرب.أمّا

العمدة فيرفض أن يسلّمها شيئا، لا منحة ولا بطاقة علاج. كلّما ذهبت إليه إلاّ ونهرها وصرخ في وجهها:

- أولادك. ..أولادك ضدّي وضدّ السّيّد الرّئيس. . .

آه، أيّها العمدة كم نعاني منك ومن أسيادك. كم أودّ أن أصرخ فيك صرخة صدّام حسين في وجه ذلك القاضي: " لولا الأمريكان أسيادك ما كان لك أن تحاكم سيّدك. . . " . كم أودّ أن أكرّر هذه الصّرخة في وجهك يوما" لولا الزّمن اللّعين لكنت الآن مجرّد راع في إحدى القرى. . . لولا هذا الزّمن الغادر ما اعتليت أنت وأصحابك هذه الكراسي الوثيرة لتحكمنا وتوزّع علينا الفتات بل تحرمنا منه. . . "

حرم العمدة بشير الثّكالى واليتامى والمعاقين والفقراء بل حرم حتّى الحيوانات العجفاء التي يملكها بعض النّاس من مساعدات العلف في هذه السّنوات الجافّة التي تمرّ بالبلاد والتي يتضوّر منها الفلاّح ويشتكي. تفاجئه الحكومة من حين إلى آخر بمجلس وزاري تفتتح به نشرة الثّامنة أخبارها البائسة. يسرد قرّاء الأخبار لائحة طويلة من القرارات التي تمّ اتّخاذها لدعم صغار الفلاّحين. تنهال برقيّات الشّكر

والامتنان من اتّحاد الفلاحة وغيره من المنظّمات و الأحزاب. ويكتب المتزلّفون من الغد عن اهتمام سيادته بالفلاحة وقراراته الرّائدة والنّموذجيّة. ولكن لا شيء من هذه القرارات يظهر للمواطن . فهي تذوب في جلسات العمد وزيارات المرشدين وما يفرض من إجراءات طويلة ومعقّدة حتى ينساها النّاس.

3

كان خالي من رجال الحزب ولكنّي أشعر أنّه من طينة أخرى غير التي نراها في أيّامنا. لم يكن من أولئك الذين يلهثون خلف مصالحهم بل كان من أولئك الذين يبذلون من أجل الوطن والمجموعة بلا مقابل. يفتخر بأنّه حارب فرنسا وشارك في معارك الجلاء وهو شديد الإخلاص لبورقيبة. لكنّه لم يحصل على منحة مناضل وربّما لم يسجّل في قائمة المناضلين التي لم تخل من تزييف.

. . . يقول خالي إنّ العديد من الأسماء التي سجّلت في تلك القائمات واكتسبت نفوذا كانت مجرّد" صبايحيّة" وعملاء لفرنسا. و لكنّه لم يكن حاقدا بسبب هذا الظّلم بل كان في طليعة الصّفوف المساندة للمجاهد الأكبر مثلما كان يسمّى طويلا في تونس. وكان لا يتخلّف في كلّ المناسبات عن تمجيده ومساندته ولا يترك موعدا سياسيّا في القرية أو في مدينة سيدي بوزيد إلّا وكان في طليعة الحاضرين والمتكلّمين والمصفّقين.

مازال يعلّق في بيته صورة لبورقيبة بالزّيّ الطرابلسي زمن هروبه إلى ليبيا أيّام الحركة الوطنيّة ويجمع في صندوقه الخشبي عشرات الانخراطات والقصاصات والدّعوات ووصولات التّبرّعات التي تشهد على تاريخه الحزبي العريق وهو ما يفتخر به طوال حياته. لم يتخلّ عن هذا الإحساس حتّى بعد الثّورة واشتبك يوما مع بعض الكهول ممّن أرادوا إثارته حينما عثروا عليه يتابع وقفة احتجاجيّة في مشارف ساحة البوعزيزي. لكنّه هجر دار الحزب و قاطع الشّعبة الدّستوريّة وأحجم عن كلّ نشاط منذ تلك الواقعة البعيدة. كان ذلك في أوائل الثمانينات، أو سنوات بورقيبة الأخيرة.

تزيّنت مدينة سيدي بوزيد. ردمت حفر الطّرقات واختفى اصفرار الجدران المهملة والمتداعية للسّقوط ومحيت الكتابات البذيئة التي خطّت عليها. رشّوا شوارعها بالمياه وعلّقوا فيها سلوسا كثيرة ثم أنبتوا فيها أشجارا عالية، لا أحد يعرف من أين جاؤوا بها وكيف أنبتوها. . .

في كل خطوة ترى المزيد من الشرائط الملوّنة والأعلام الصّغيرة والكبيرة ولافتات التّرحيب وفي كل جدار تقابلك

صور بورقيبة ووزيره وتعترضك حشود غفيرة من المواطنين الذين هبّوا لمواكبة الزّيارة. جاؤوا من مختلف القرى والمدن المجاورة. و ربّما جاؤوا بأكثرهم على متن شاحنات مثلما اعتادوا كلّما أرادوا التّعبئة وإظهار الحضور الشّعبي الكثيف الذي يؤكّد وفاء الرّبوع للسّلطة .

بعد انتظار دام ساعات، تأهّب النّاس واستنفروا وتطلّعت أبصارهم إلى الضّيف الكبير. ضربت الدّفوف ودوّت الأنغام ورقصت الخيول والبنادق وضاعت الأهضام في الأرجاء وتعالت الهتافات:" يحيا بورقيبا. . . يحيا بورقيبا. . . "

حلّ ركب الوزير الأوّل في هذه اللّحظات. صافح موكب المسؤولين المحتشدين أمام مركز الولاية ثم ترجّل في اتّجاه دار الحزب . ودوّى صوت مراسل إذاعي على أمواج الإذاعة :

- إنّها زيارة خالدة لن تنساها جهة سيدي بوزيد، هذه الولاية الفتيّة والمناضلة التي جدّدت وفاءها للمجاهد الأكبر واعترافها الدّائم بالجميل لباني تونس وصانع عزّتها. . . وقد خرجت على بكرة أبيها منذ السّاعات الأولى للصّباح، شيبا وشبابا لاستقبال مبعوث فخامة الرّئيس سيادة الوزير الأوّل

محمد مزالي الذي أدّى زيارة عمل إلى الولاية وسنوافيكم بالتّفاصيل في مراسلة قادمة. . . "

نهض خالي الحاج عبد السلام باكرا. ارتدى جبّته البيضاء و شاشيّته الحمراء و تعطّر ثمّ هرع إلى مدينة سيدي بوزيد. تقدّم الصّفوف المزدحمة، دافعا القوم بمنكبيه وهمّه أن يصل إلى الوزير الأوّل. في جيبه عريضة من أهالي القرية. مطالب مزمنة وقديمة منذ فجر الاستقلال كتبها الأهالي عشرات المرّات وفي كلّ المناسبات. سلّموها لكلّ الوزراء الذين زاروا الجهة منذ زمن بن صالح لكن لا مطلب تحقّق. تصبح هذه المطالب وعودا في المواسم الانتخابيّة ثمّ سرعان ما تتبخّر وينقطع الحديث عنها.

يمرّ الوزير ملوّحا بيديه ومن حين لآخر يصافح بعض المستقبلين. فهو الموعود بالخلافة والكلّ يتوقّع أن يكون رئيسا بعد بورقيبة. صمّم على أن يستوقفه ويتحدّث معه. تقلّصت المسافة. لن يتركه يمرّ. سيقفز إليه ويحتضنه ويبلغه تحيّات الأهالي وشعبة القرية المناضلة له وللزّعيم ثمّ يسلّمه الرّسالة وربّما يحدّثه في أمرها. . . لن يتراجع، تحدّيا

لمن سخروا منه وهو يجمع توقيعاتهم ويقوم بمساع لدى بعض المسؤولين منذ زمن بعيد ولمن ضربوا أخماسهم في أسداسهم وهمهموا رافضين التّوقيع و هامسين لبعضهم:

- لعلّه يجمع توقيعاتنا ليفتكّ منّا أراضينا أو يورّطنا في أشياء أخرى.

خطوات قليلة ويكون أمامه. هو الآن أمامه فعلا. إنّها اللّحظة الحاسمة. مدّ يده إلى الوزير. لمست أصابعه أطراف يده. همّ بمدّ الرّسالة. في لمح البصر دفعوه جانبا ومرّ الوزير مسرعا. مسؤولون وحزبيّون مقرّبون تأنّقوا وجاؤوا كعادتهم. يهتفون بحناجر عالية ويدفعون كلّ من يحاول الاقتراب ويفتكّون الرّسائل خشية افتضاح بعض الأمور وبلوغها إلى السّلطة.

لم يصمت. غادر الموكب غاضبا وشقّ الشّارع الكبير، شارع المدينة الوحيد مزمجرا:

- أنا مناضل ومقاوم . . . لن أصمت. آه يا جدّي سيدي بوزيد. انتقم منهم. ازأر في وجوههم. لقد أطردوا أحفادك وسحبوا أسماءهم من كل القائمات. فكأنّنا لسنا من

المناضلين ولا من المقاومين. لقد قفز آخرون وصاروا يقودوننا و يدفعوننا بمناكبهم دون رأفة. حاربت المستعمر وركضت بين المدن والقرى وتعرّضت للبطش. كان بورقيبة يهمس في أذني ويختلي بي في زياراته أمّا اليوم فيدفعني هؤلاء الغرباء. آه يا سي الحبيب. . . ارفع عصاك والكزهم بها. . . كم أودّ أن تعزل كثيرين ممّن صاروا يمثّلونك هنا. .."

بلغ جامع سيدي بوزيد .

بادره سي الحسين[8]:

- ماذا قال الوزير؟

ردّ بغضب:

- لم أسمعه. . . مدينة"سيدي بوزيد" باعوها يا سيّدي. اختطفوها منّا. . .

أجابه وقد اصفرّ وجهه:

- جدّنا أقوى منهم. لن يستتبّ لهم الأمر. . .

احمرّ وجه الخال وارتفع صوته:

---

[8] الحسين: وكيل سابق لمقام الوليّ الصالح سيدي بوزيد

- أنا يا سي الحسين يدفعني هؤلاء بعد كلّ هذا العمر وكلّ هذا الكفاح؟؟

تمتم الحسين:

- لا حول ولاقوّه إلا بالله. . . لا تبال بهم يا حاج. . .

مكث حذو سي الحسين بضع دقائق شرب خلالها كأس شاي وغادر نحو القرية. يراوده إحساس بأنّ البلاد سرقت وأنّ زمن بورقيبة قد ولّى وأنّه ترك مكانه لآخرين أحاطوا به من كلّ حدب وصوب. نهشوه ونهشوا البلاد.

هجر السّياسة والسّياسيّين وعزف عن الشّعبة والحزب والانتخابات كأنّه لم يكن من رجال الصّفوف الأولى. . .

حين ألقى زين العابدين بن علي بيانه وأعلن تسلّمه مهام رئاسة الجمهورية بكى الخال . لم يأكل شيئا يومها وتملّكه الغضب. لم يفرح بالرّجل الجديد. انتظر غضبا يوقف المهزلة لكنّ ذلك لم يحصل. لم يصدّق حكاية استفحال المرض والعجز التّام. فلقد شاهد بورقيبة البارحة في أخبار الثّامنة. كان بخير. . .

كتم حزنه ولاذ بالصّمت. تشكّل مشهد جديد.

كانت عائلتنا توصف بالمناضلة والدّستوريّة بفضل خالي عبد السلام ولكن بمغادرته للمشهد انتهى كلّ شيء. ولم تمض سنوات قليلة حتىّ صفعت العائلة ودمّرت. أصبحوا يشيرون إلينا بالبنان ويرسلون خلفنا عيونهم.

4

مرّت سنوات الدّراسة الثّانويّة على وتيرة واحدة. نحلّ بهذه المدينة فجر الاثنين على متن شاحنات نحشر في مؤخّراتها كالأغنام. تجوب بنا دروبا ملتوية خشية أن تعترض طريقهم الدّوريّات الأمنيّة. ونرجع إلى قرانا بنفس الطّريقة عشيّة السّبت بعد انتهاء الدّروس وانفضاض السّوق الأسبوعيّة.

كانت سنوات جميلة رغم الخصاصة والحرمان غير أنّ المسيرة الدّراسيّة لم تستمرّ. انقطعت في لحظة ما وابتعدت عن هذه المدينة فصرت أزورها في فترات متباعدة. ولم تتوطّد علاقتي بها من جديد إلّا بعد أن أدمنت وصار لزاما عليّ أن أجيء كلّ يوم.

عدنا إلى الدّراسة بعد عطلة استثنائيّة ناتجة عن إضراب . كان يوم إخلاء المعهد يوما عظيما. انتشر أعوان التّدخّل"البوب" في كل المداخل وركضوا خلفنا وبادلناهم الغاز المسيل للدّموع بالحجارة ثمّ هربنا إلى قرانا. . .

طالعنا المدير والقيّمون بوجوه عابسة و نظرات يتطاير منها الشّرر وتجمّعنا حول سبّورة الإعلانات نقرأ البلاغ الجديد لإدارة المعهد .

"قرّر مجلس التربية بالمعهد رفت التّلاميذ الآتي ذكرهم:

- مبارك صالح(رفت نهائي)

- عثمان الشّرقي (رفت نهائي)

- سكينة بشير (ثلاثة أيّام)"

. . . قضي الأمر بسرعة. لم يدافع عنّا أحد.

" مبارك صالح مازال في الإيقاف. لم يفرجوا عنه بعد. لا أحد يعرف مصيره أمّا عثمان فهم قادمون إليه. لن يتركوه حرّا طليقا." هكذا تهامس البعض ثمّ دخلوا صاغرين إلى القاعات واستأنف أساتذتهم الدّروس.

أمسك بي أحد القيّمين من ذراعي وقادني بعنف ودفعني أرضا ثمّ أوصد الباب. تسلّلت عائدا إلى القرية. لم تكن رغبتي في الدّراسة شديدة ولكنّي كنت أتجرّع مرارة الخيانة. كلّهم خانوا وصمتوا. تمنّيت حقّا وأنا أغادر أن تلتحق بي

شاحنة الشّرطة وتأخذني حيث مبارك صالح. كانت بداخلي رغبة في تذوّق ما تذوّقه ومواصلة المعركة.

كنّا ثلّة من الغرباء، جمعنا المعهد. لم نكن نعرف من الإضرابات غير الهروب من الدّراسة. عشنا ثورة الخبز صغارا. لم نكن نفهم شيئا سوى أنّ الأسعار ارتفعت. عدنا إلى قرانا. مكثنا هناك حتّى جاء اليوم الذي تكلّم فيه بورقيبة:" ... ما ثمّاش زيادات. . .نرجعوا كيما كنا ". وخرج الشّعب مسرورا وبثّت الإذاعة مسيرات فرح:" بورقيبة يا حنين. . . رجّع الخبزة بثمانين".

بعد مدّة، أصبحنا نفهم السّياسة ونكره السّلطة ونرغب في الاحتجاج الحقيقي. لا لنثير الشّغب ونرتاح من الدّراسة مثلما يروّجون بل لأنّنا نريد أن نصرخ ضدّ النّظام ونفتكّ حقوق الشّعب. هذا ما علّمنا مبارك صالح القادم من الجنوب ذات عام دراسي .

هو ابن موظف متنقّل -هكذا يقدّم نفسه ساخرا- تنقله الإدارة شمالا وجنوبا عقابا له على مواقفه. فهو من أتباع أحمد المستيري زعيم حركة الدّيموقراطيّين الاشتراكيّين

الحزب الذي أزعج النّظام آنذاك ومن مرشّحيه في الانتخابات التّشريعيّة التي تمّ تزييفها. تلك الانتخابات التي لم تعترف بنتائجها الحركة واعتبرت أنّها حرمت من الفوز فيها وعلّق على إثرها مناضلوها قائلين :" ورقة الانتخاب مثل الحنّاء. تدخل الصّندوق خضراء ثمّ تخرج منه حمراء".

كان مبارك يعرف أكثر ممّا نعرف. له خبرة بالسّياسة وشؤونها، اكتسبها من محيطه العائليّ. ولكنّه لم يكن على حزب والده الدّيموقراطيّ الذي لم يجبره على أن يحمل نفس أفكاره.بل سمح له بأن يكون عضوا في مجموعة سرّيّة تعمل بعيدا عن أعين النّظام .

زرع فينا بذرة جديدة وألقى بنا في متاهات السّياسة وصرنا قسما ثائرا تسمّيه الإدارة:" قسم المشاغبين" . تزعّمنا وسرنا خلفه و صفّقنا لكلماته. كنّا نحلم كثيرا وكانت أحلامنا أكبر من عقولنا وجهودنا. و لم نكن نهدأ أو نكفّ حتّى جاء ذلك اليوم الخريفي.

كان يوما غائما. وجوه غاضبة وطلقات نار وشاحنات أمن ومداخن وحجارة وقنابل مسيلة للدّموع ودكاكين مغلقة. لم

يهرب أحد. خرجنا من المعهد صارخين بكل غضب. سلكنا الطّريق نحو الشّارع الكبير، ضاربين على محافظنا و مردّدين شعارات كثيرة.

"يا تلميذ يا ضحيّة ايجا شارك في القضيّة/ لازم حقّ النّجاح لولد العامل و الفلّاح. . . "

التحمنا بجموع التّلاميذ الغاضبين القادمين من مختلف معاهد المدينة. التحق بنا تلاميذ آخرون قادمون من معاهد أخرى وساروا معنا وهم يرفعون المصاحف عاليا و ينشدون بصوت واحد:

" لبّيك إسلام البطولة كلّنا نفدي الحمى ... لبّيك واجعل من جماجمنا لعزّك سلّما ... لبّيك إن عطش اللواء سكب الشّباب له الدّماء ... لبّيك ... لبّيك ... لبّيك "[9]

حمي الوطيس وتقاطرت الشّاحنات الأمنيّة وأطلقوا علينا الغاز المسيل للدّموع وأشهروا أسلحتهم وهم يركضون خلفنا.

---

[9] نشيد أعدّه الفنّان اللّبناني محمد سلام عقب العدوان الثّلاثي على مصر عام1956 وقد استبدل الإسلاميّون لفظة "علم العروبة" بإسلام البطولة

قبضوا على مبارك صالح. جرّوه نحو شاحنتهم وهم يركلونه ويلعنونه بكلّ وحشيّة وبذاءة.

" كذبت نشرات الأخبار و لو صدقت... "

في نشرة الظّهر زعموا أنّ مجموعة من الملثّمين والمنحرفين والغرباء عن المؤسّسات التّربويّة أثارت الشّغب واعتدت على الأملاك العموميّة. وأعلنوا إيقاف الدّروس إلى أجل غير مسمّى.

آه يا مبارك صالح. . . ماذا فعل بك الزّمن؟ هل واصلت الدّرب أم أنّهم استقطبوك؟ قد نجحوا في السّنوات الأخيرة في استقطاب كثيرين و تحويلهم من صفّ الشّعب إلى صفّ السّلطة.

لم أشاهده منذ ذلك اليوم ولم أسمع عنه خبرا وربّما لم يفرجوا عنه بعد. كم ابتلعت سجونهم من أصوات حالمة بسبب تلك التّهمة التي تكبر بسرعة و تتحوّل في لمح البصر من التّجمهر وإثارة الشّغب إلى الانتماء إلى وفاق إرهابيّ وتهديد أمن الدّولة وغير ذلك من التّهم الخطيرة.

أمّا سكينة بنت العمدة فرفتت ثلاثة أيّام وأظنّهم خفّفوا من عقوبتها نظرا لموقع والدها. وهو ما وقع مع آخرين كانوا معنا وكانوا أشدّ شراسة ولكنّهم لم يمسّوهم بسوء. هؤلاء الذين لهم من يحميهم وينقذهم من بطش السّلطة تزاحموا لاحقا وتصدّروا قائمات المناضلين و الثّوريّن...

كلّ هذا يحفظه التّاريخ يا سكينة. . .

مازلت أذكرك رفيقة وحبيبة رغم ما جرى. . .

سكينة كانت معنا. كانت تكرههم. لم يكن يعنيها أنّها ابنة العمدة بشير رجل السّلطة الكبير في قريتنا. لم تكن تتخلّف عنّا.وزّعت المناشير وهتفت في المسيرات. حرّضت وعقدت الاجتماعات السّرّيّة في المبيت وسهرت اللّيالي وهي تعدّ اللاّفتات القماشيّة والورقيّة. . .

كانت تعني لي الكثير. كانت حزبا من أحزابي وكانت حلما حين كانت الأحلام سهلة. لكنّ الرّفت باعد السّبل.

نجحت سكينة. تخرّجت واشتغلت وصارت أستاذة يرنّ اسمها على ألسنة التّلاميذ "مادام سكينة ". أمّا أنا فلا أعني شيئا في هذه المدينة. سكّير مفلس لا شيء لي. لم تعد لي

صلة بها. انقطعت العلاقة منذ زمن طويل. انطفأ ذلك الأمل الذي كان مثلما انطفأت آمال كثيرة.

5

كان أخي النّاصر يقضي أيّامه بين الحقل والمسجد. ينهمك في العمل الفلاحي وفي قراءة القرآن وإمامة أهل القرية ومعالجتهم ببعض الآيات القرآنيّة. هم يقصدونه كثيرا ويثقون في يده. يعتبرونها اليد الطّيّبة. ورث إمامة القرية عن والدنا. لم نعرف له زيغا عن الواقع أو الحقّ ولم نلحظ عليه شيئا غريبا. . .

أفقت في ليلة من ليالي الشّتاء على وقع أزيز وصراخ. سيّارة مجنونة تغادر الحوش و وردة تصرخ وتتخبّط:

- أخذوه أخذوه. لقد اختطفوه اختطافا.

... شاهدت السّيارة من بعيد. أسرعت إلى بيت أخي. لم أتدثّر بشيء.

ذكرت وردة أنّهم اقتحموا البيت عنوة، وبركلة واحدة من أحدهم خلع الباب الخشبيّ ودلفوا إلى غرفته صارخين هائجين :

- فيق يا كلب. . . يا ولد ال. . . .

كان أحدهم يشهر سلاحا. . .

عجبا! السّلاح في وجه أخي النّاصر المسالم.

في الصّباح تناقل الأهالي الخبر. فرقة أمنيّة اقتحمت القرية بعد منتصف اللّيل واستعانت بالعمدة بشير واتّجهت إلى منزل الشّيخ النّاصر. أخذوه في لباس النّوم وصفعوه.

وردّد بعض عشّاق الإشاعات أنّهم أخذوني معه.

اقتيد أخي النّاصر الشّرقي إلى وجهة مجهولة. لم نعرف مكان إيقافه إلّا بعد مدّة طويلة. لم يجرؤ أحد على السّؤال عنه. صار النّاس يلعنونه وينتقدونه خوفا. تنصّلوا منه جميعا. صاروا يخافون حتّى من مجرّد ذكر اسمه.

منع العمدة كل المساعدات والمنح الاجتماعيّة التي كانت الدّولة تمنحها له ولأقاربنا وشمل الأمر حتّى العلف الحيواني. أحيل النّاصر على المحكمة. اتّهموه بالانتماء إلى حزب غير مرخّص له وتنظيم اجتماعات سياسيّة في المسجد والتّآمر على أمن الدّولة. . .

لم أكن أعلم أنّ أخي انتمى إلى حركة النّهضة ولم أكن أعلم أنّ له أنشطة سياسيّة ولم أشاهده يوما يحمل بندقيّة لكنّهم

زعموا أنّهم عثروا في بيته على بعض الأسلحة وكثير من المناشير. . .

دارت وردة هنا وهناك. طلبت الطّلاق. وجدته سهلا. ساعدها بعضهم خلسة على هذه الخطوة.

آه، وردة يا وردة. . .

أنت أيضا هبّت عليك رياح المدينة وصرت ترين الخلاص في الرّحيل.

وردة زوجة أخي الذي يسجنه النّظام ظلما تنزع عنّا كلّ الشّرف. ماذا ينقصنا كي تكتمل المأساة؟ أين أنت يا خال؟ أتقبل بهذا العار؟؟؟

أكلّ هذا شماتة في الشّيخ النّاصر؟

آه يا أخي النّاصر لقد طعنوك مرّة أخرى. . .

أبلغوا عنك أمن الدّولة. زعموا أنّك تجتمع بالمصلّين سرّا وتلقي خطابات معادية لسيّدهم. لفّقوا لك تهما. قالوا إنّك على صلة بأفراد مسلّحين. قبروك حيّا. ثمّ دبّروا لها فكرة الطّلاق منك وزيّنوا لها الرّحيل إلى المدينة.

لم تسمع وردة كلام أيّ منّا. داست على رأي خالي عبد السلام ونهرت الوالدة محبوبة وباعت الأغنام. ثمّ أخذت ابنتها نادية وحملت معها دجاجاتها و كلبها و طارت إلى المدينة.

دمّرتنا يا ابن القرية.

كلّها تدابيرك ومخطّطاتك.

أودعت أخي النّاصر في السّجن واستقطبت زوجته وردة وابنتها نادية وافتككت منّي سكينة ومازلت تجول في هذه القرى والمدن الصّغيرة. تستقبلك الخرفان والزّغاريد. تبّا لك ولهذا الزّمن.

6

حدث الحاج عبد السلام يوما:

- هتف العمدة بشير لبورقيبة بالصّوت العالي وهاهو يهتف للسّابع من نوفمبر بصوت أعلى." الشّابع ...الشّابع" مثلما يسخر منه أحدهم. يدّعي أنّه مناضل ومقاوم من الرّعيل الأوّل ويزعم أنّه من الذين أطردوا الاستعمار وشاركوا في حرب الجلاء. ولكنّه من المزيّفين الذين تسلّلوا إلى الحزب.

من أين اكتسبت هذا المجد وهذه المكانة يا عمدة؟ كيف أصبحت ناطقا باسم الوطن وأنت ابن رجل عميل ومجرم؟ كان مجرّد "صبايحي". ادّعى أنّه مقاوم. دم الهادي اليوسفي لن يضيع. مازال عالقا في رقبتك ورقبة والدك.

كان الهادي اليوسفي وطنيّا صادقا. هو أحد أبناء القرية. ليس هذا لقبه الرّسمي فهو لا ينحدر من قبيلة أولاد يوسف أو النّصايرية المعروفة في سيدي بوزيد ولكنّ التّسمية جاءت نسبة إلى انتمائه إلى اليوسفيّين ومناصرته للزّعيم صالح بن

يوسف. ناضل كثيرا في سبيل الوطن وحارب فرنسا ودافع عن الحزب الدّستوري لكنّه اتّخذ موقفا مغايرا في لحظة الحسم. لم يقتنع بالاستقلال الدّاخلي وقرّر أن يلتحق بأبطال الجبال وصار يتحرّك هنا وهناك. عثرنا عليه مقتولا في بيته. لم تعلن نتيجة التّحقيقات ولكنّنا كنّا نعرف الحقيقة جيّدا. والدك هو الذي فعلها. . .

حين قتل والدك العميل ثأرا ادّعى من ادّعى أنّه شهيد ومناضل وبطل وصرت أنت ابن شهيد مزيّف. صمتنا جميعا عن الحقيقة. لم نرفض تعيينك عمدة. لم يكن لنا حقّ الرّفض فأنت مسنود من الأقوياء.

انقضضت علينا وحرمتنا من الحياة وتجاهلتنا. ابتززت دولة بورقيبة كثيرا ولمّا تغيّر النّظام صرت تلعن الزّعيم وتمجّد الزّين في كل مكان وامتدّت أسطورتك في كل البقاع وصرت لجاما و قيدا.

7

الحوش الكبير الذي كان صوت النّاصر يعلو بين جدرانه مرتّلا القرآن ومعلّما الصّبية- وقبله كان والدي- صار خرابا... فضحتنا وردة. وردة التي لا تقرأ حرفا واحدا. و كنّا نظن أنّها لا تستطيع الذّهاب إلى السّوق دون مرافق. فهي معرّضة للضّياع والاختطاف والاغتصاب. هاهي تلعب الآن مع الكبار. كلّ سبت تصل أخبارها الجديدة. ترسل سلامها الحار إلى الأهالي وتذرف دموع الشّوق والحنين. تقول للبدو الذين يعترضونها في السّوق الأسبوعيّة إنّها بخير وتغرق في مدح سي عبد الواحد وسي علاّلة وتعدّد فضائلهما. و يعودون بدورهم هامسين لبعضهم أنّها خرجت من الصّفر وتخلّصت من سنوات الجوع والحرمان في هذه القرية الكئيبة وأنّ الرّحيل وترك هذا المكان هو السّبيل الوحيد للخروج من هذه الظّروف .

عبد الواحد دفعة واحدة. إنّك في المستنقع يا"للّة" .

من عبد الواحد هذا؟ من يكون؟ مجرّد شخص رخيص لا قيمة له. كلب لأسياده ويوم يذهبون سيذهب مسعورا.

قد شاهدتك ذات سبت. كنت في سمرقند. رأيتك أنت وابنتك وعبد الواحد... آه أيّ عار هذا. أفعلتها يا عبد الواحد ودست على شرفنا وكرامتنا لأنّك من عناصر الحزب . . . لأنّك كلب علّالة الزّيني . . .

لن تدوم لك عربدة هذه الأيّام. سيحلّ اليوم الذي تكون فيه مثلنا أو أحقر منّا. . .

ما لم يبح به عثمان الشّرقي إطلاقا

سكينة تتدخّل

لم تكن لي نيّة لأتكلّم في هذه الرّواية. لكن ثمّة ما استفزّني. لي بعض الخواطر التي رقصت أمامي. لن أتحدّث كثيرا عن الأمس القريب و لا عن زمن الدّراسة الثّانويّة. . . هي لحظات حلوة وأيّام جميلة. أريد لها النّسيان. لا أريد أن يذكرها أحد. أنا الآن مدرّسة في معهد وزوجة مسؤول سياسيّ كبير وبعد أيّام قد أصبح بدوري مسؤولة. زوجي أعدّ العدّة والتّعيين قريب. . .

سأتحدّث عن حادثة علقت بذهني . قد أكون ندمت بعد أن غادر. يومها كان بإمكاني أن أضمّد جراحه. أعرف جيّدا أنّه يحبّني. . .

أفقت مذعورة على صوت مصدح الحي الجامعي:

- سكينة. . . زيارة.

خرجت مسرعة ومحتارة في آن واحد. من سيأتي في هذا الوقت؟

أعلمتني عاملة الهاتف أنّ هناك من ينتظرني أمام الباب. أطلّيت من النافذة. تأمّلت الوجوه. لمحت وجهه وشاربه المفتول.

أمازال يحنّ إلى صفحات الطّفولة البريئة؟ ألم ينس؟ ألم تمح ذاكرته؟ ألم تفعل فيه السّنوات؟ ألم تترك صفعة والدي العمدة بشير في نفسه شيئا؟

مرّت السّنوات وتغيّر المكان والأشخاص وتبدّلت الدّنيا. . . فكيف خطر له اليوم أن يعود؟. . .

لا شكّ أنّك تنتظر لحظة تاريخيّة ولكنّي مضيت يا رجل. . .

من أين خرجت يا مرحلة عابرة لم يبق منها غير الأطياف؟ حسم الأمر. والدي العمدة السّابق يكفر بك كفرا. يعدّك شيطانا. والأمن الجامعي قد ينتبه إلى وجودك ويلقي عليك القبض. ذاكرتهم لا تنسى. هل أنت قادم لي أم أنّك محمّل بالمناشير كعادتك؟

آه يا رجل. . .

بعد أسابيع قليلة سأصير زوجة رجل آخر استطاع خوض معركة الحياة بنجاح وصنع نفسه وسط الصّراع. . .

ستقول إنّه انتهازي ومتسلّق وهو في النّهاية مسؤول حزبي ستعصف به نشرة إخباريّة وبلاغ تعلن عنه التّلفزة والإذاعة نقلا عن وكالة تونس إفريقيا للأنباء" قرّر رئيس الدّولة تعيين السّيّد. . . "

ستقول إنّه لن يذكر في هذا البلاغ ولن يقولوا: "سيدعى لمهام أخرى "مثلما اعتادوا سنينا طويلة بل سيعزلونه بكل احتقار وتجاهل. ولكنّي أقول لك إنّ ذلك لا يعنيه فهو الآن بخير عميم ولا يحتاج إلى منصب. صار يملك الكثير، سيّارات وأراض وأرصدة ماليّة. ومع هذا فلن يعزل. ينتظره غد أفضل. وستجثو أنت وأمثالك وأمّك أمامه طمعا في إشارة منه للحصول على مساعدة اجتماعيّة.

لن أكون سيّئة آنذاك. سأكون معك وأساعدك فأنت في النّهاية زميل دراسة قديم. أمّا الآن فلن تظفر بشيء وستعود خائبا. ستقف طويلا أمام المبيت الجامعي دون أن تراني وسأطلّ عليك خلسة من نافذة عالية.

عدت إلى غرفتي. وتركته ينتظر حتّى غادر منهكا.

نادية الشّرقي تتذكّر

كانت القرية باسمة. الأغنام تثغو و الحقول خضراء يكسوها العشب والاشجار تزهر والأسرة كبيرة يجمعها السّهر والحبور وأبي النّاصر يرفل في جبّته البيضاء ويترنّم بقراءة القرآن. يؤمّ المصلّين في القرية ويقصده النّاس لمشاورته في أمورهم وليعالجهم. وكان عمّي عثمان شابّا يافعا أنتظر عودته بفارغ الصّبر . فهو الذي يعود محمّلا بالهدايا وهو الذي يبعث فيناالبهجة والضحك. نتحلّق حوله ونستمع إلى حكاياته غير أنّ الأيّام لا تستقرّ على حال وتفاجئنا بما لم يخطر على بالنا.

لم أكن أدرك تلك اللّحظة الفارقة في حياتي. لم يصبح أبي معنا وطال غيابه فانقلبت حياتنا و غابت البهجة شيئا فشيئا. تمزّقت ملابسنا وقلّ أكلنا وتذوّقنا الجوع والحرمان وانقطع عن زيارتنا الأهل. الأطفال الذين كانوا يزورونا وكنت ألعب معهم غابوا والنّساء اللّواتي كنّ يزرن أمّي

منعهنّ أزواجهنّ وحظروا عليهنّ ذلك تجنّبا للشّبهات والأقاويل. مدير الإعداديّة الذي كان يشكرني في السّنوات الفارطة ويشيد بي و يطمئن أبي ويلحّ عليه أن لا يشقي نفسه بزيارتي والسّؤال عنّي ويوصيه بأن اتّصل به إذا احتجت أمرا أصبح يتجاهلني ولا يوليني اهتماما.

صارت أسمالي تخجلني. انتقلت إلى المقاعد الخلفيّة وتراجعت نتائجي ورسبت ومنعتني أمّي من مواصلة الدّراسة. قبعت حذوها وقد صرت أفهم ما وقع. الأهل ينكروننا ويتجنبّون الحديث معنا خشية عيون السّلطة و أبي قد لا يعود أبدا. وإذا عاد فمصيره بائس. لن يتركوه. سيراقبونه مراقبة لصيقة ويجبرونه على أن يزورهم يوميّا.

حصل ما لم يكن في الحسبان. العمدة بشير أوهم أمّي أنّ المساعدات ستتدفّق علينا بمجرّد طلاقها وامرأة عجوز أكملت إقناعها:

- أنت صغيرة شابّة فلا تخسري عمرك مثلي. بعد الطّلاق سيطلبون يدك وتتزوّجين أمّا البنت فكبرت وستتزوّج. . . لا تدمّري نفسك. . .

في يوم مشحون بالدّموع والحزن كان الطّلاق. وجاءنا عمّي عثمان مخمورا في الليّل وتشاجر مع أمّي. هدّدها ولعنها.

صباحا كانت تجمع أدباشنا. . .

" سأتركها لكم. . . سأرحل "

حلّت شاحنة صغيرة. ملأناها أثاثا باليا وانطلقنا نحو مدينة سيدي بوزيد. قطنّا مسكنا قديما في حي شعبي وبدأت أتأهّب لمعركة الحياة. طرقت أمّي أبواب المسؤولين فلم يستقبلها أكثرهم ومن استقبلها منهم ماطلها أو صدّها. مرّات عديدة أخرجها الحاجب بعنف تحت صراخ المسؤول:

" راجلك خوانجي. . . تحبّي تقصّيلي راسي. . . أخرجي . . . أخرجي... "

خرجت لأخوض معركة الحياة بنفسي. فكلّ الأبواب أقفلت . قادتني جارتي الشّابّة إلى هناك. إنّها معركة وسلاحها واحد يا نادية، مسألة حياة أو موت. كسّري كلّ القيود وحلّقي عاليا. هنا لا أخوال ولا أعمام ولا أهل قبيلة يزمجرون ويهدرون. لا تعطي اعتبارا لأحد واهجمي على الحياة بهذا الجسد الذي تحسدين عليه. ازحفي على بقايا الخجل والأقفال والأحزمة

وانطلقي في الأفق. هؤلاء الذين يتحكّمون في الجهة لا يقدر أكثرهم على الصّمود أمام نظرة حسناء. يلهثون خلف النّساء. افعلي ما أوصيك به وستصبحين مثلي. ستضربين في الأرض بحقيبتك الصّغيرة ويهلّلون لك. . ."

تعلّمني جارتي الجديدة كيف أغري رجلا وأطيح به. تعلّمني مخالفة ما كنت أوصى به في القرية، تلك التّوصيات الصّارمة التي تنصّ على عدم الابتسام لغريب و على عدم النّظر إلى الرّجال وإظهار الخجل والبراءة والتّلعثم وستر الجسد أمامهم.

تعلّمني كيف أطيح بعبد الواحد وأجعله رهن إشارتي. هي تعرفه مليّا وتعرف الكثير من أشباهه في هذه المدينة. تدخل عليهم في مكاتبهم بلا استئذان فيقفون إجلالا لها ويتمسّحون على أعتابها. هؤلاء الملاعين ممّن جعلتهم الدّولة أمناء على مكاسبها لا يصمدون أمام عطر أنثى. يتحوّل تجهّمهم إلى وداعة وليونة ويصبحون خدما طيّعين.

أخذتني إلى عبد الواحد ذات صباح. . .

ظلّ أيّاما يماطلني وأنا أندفع نحوه بحثا عن شغل. لا حلّ لي. مكتب التّشغيل لا يقدّم الخدمة إلاّ بالواسطة. أنفّذ تعليمات جارتي حرفا حرفا وأخوض التّجربة الخطيرة التي لم تكن تخطر على بالي يوما.

أوقعت بعبد الواحد لكنّه أيضا أوقع بي. صرت أسيرة له في انتظار شغل يحرّرني. ألهث خلفه هنا وهناك وأرافقه أينما ذهب. صرت أختلي به وأنزع له الحذاء وأغسل قدميه وأصبّ له كؤوس الخمر وأنام معه. أمّي وردة تعلم ذلك وأهل القرية يعلمون وعمّي عثمان يعلم. يرمقني بنظرات قاتلة ولا يكلّمني كلّما اعترضني. كثيرا ما أطلق خلفي صوته:

- يا مومس. . . يا كلبة الكلاب. . . تفه. . . تفه.

كلّما اعترضني إلاّ وأشحت عنه بوجهي وسارعت بالهروب. أعرف أنه يتوعّدني . هو يحدّث النّاس بأنّه سيذبحنا جميعا، أنا ووردة وعبد الواحد وعلاّلة. يقول إنّه سينحرنا بسكّين واحد. . .

الأستاذ عبد الله مازال يغرق في حلمه. أظنّه لا يعلم. لم يستسلم. هو شبح آخر يطارد ظلّي و يتنسّم أخباري. قلت له

منذ الأيّام الأولى التي اعترضني فيها:" لا يمكن أن أحبّك". ولكنّه لم يستسلم. ظلّ يلاحقني بنظراته من مكان إلى آخر.

أحيانا ألمحه وسط المدينة فأعرّج على أوّل زقاق. ألمحه يطيل قامته ويطلّ كي يراني وأحيانا يلتحق بي. يغرقني في قصائده. يتغزّل بي. أضحك وأسخر من نفسي لا منه في حقيقة الأمر. فأنا لا أفهم أكثر ما يقول. فنصيبي من الشّعر بعض المحفوظات التي تعلّمتها في المدرسة.

كان جريئا. وصل إلى أمّي وردة في تلك الأيّام الأولى قبل أن أغرق. ارتمى أمامها وتمسّك بتلابيبها. عرض أمره. لم تعده بشيء لكنّه كرّر صنيعه مرارا. يعترضها ويستوقفها حذو جامع سيدي بوزيد ويتقرّب منها. يشتري لها كؤوس الشّاي التي يبيعها باعة متجوّلون. كانت تقول لي :

- لن تجدي أفضل منه.

ولكنّنا كنّا نخاف فضيحة الجوع ونخشى عثمان الذي صار كابوسا مرعبا . . .

أحاول أن أستجمع شجاعتي يوما و أقول له:

- أستاذ عبدالله... تمنيّت بحرارة لو عثرت عليك قبل رحيلنا إلى المدينة وقبل أن أتعرّف على هؤلاء، أمّا الآن فلقد حسم الأمر. . لم يعد لي حقّ في الظّفر بعاشق مثلك يفتخر بقيم الحب التي تركتها بعيدا. لم أعد أصلح لأن أكون حبيبة أو زوجة لرجل شرقي. . .

إشاعة:

دارت إشاعة هذه الأيّام تقول إنّ الأستاذ عبدالله مغرم بوردة وليس بابنتها وإنّ لديه علاقة خفيّة معها.

وفي رواية أخرى "إنّه حوّل وجهته نحو وردة بعد أن يئس من ابنتها ".

حاولت استقصاءها فلم تفصح وتركت الأمر مواربا. . .

عبد الله المسرحي

دلف عبدالله إلى الحانة القريبة من حي الخضراء. . . شرب وشرب ثمّ خرج متعثّرا. الرّياح تصفّر في شوارع سيدي بوزيد ومقاعد سمرقند الخارجيّة خاوية. هذه المدينة تنام باكرا فلا يمكث في ليلها الشّتوي إلا السّكارى ومن ضاقت بهم سبل الحياة ولفظتهم البيوت. ثمّة جلساء يتكوّمون في الدّاخل منهمكين في اللّعب وصوت أم كلثوم يلهث من الحاكي القديم المنبعث من المقهى.

"الحبّ كلّو حبيتو فيك. . "

قاطع الأغنية متجاوبا مع نغماتها التي تسرّبت إلى روحه:

" وزماني كلّو أنا عشتو ليك "

تدحرج نحو دار الثّقافة. خطر له أن يلتحق بالأمسية الشّعريّة التي تنتظم هناك وأن يقرأ الشّعر.

سارع الخطى. لعلّه يدرك الرّدهات الأخيرة من أمسيتهم. يريد أن يهجو الشّعراء ويعبّر عمّا يخالجه. هو لا يعترف بهم.

يعتقد أنّه قادر على قول ما يعجزون عنه. ضاعت كرّاسات الشّعر و القصائد الحالمة التي كتبها في البدايات و ترك الشّعر

واتّجه نحو الرّكح ولكنّ شيطان الشّعر مازال كامنا في نفسه. توقّع أن يجد الوجوه القديمة الشّاحبة وعزم على أن يقرأ قصيدته الشّهيرة عن الثّقافة وأهلها:

"لا تسألني عن ثقافة كنّا لها خدما

لا تسألني عن داركنت بعشقها أضطرم

قد جافاني ركحها اليوم والقلم

حين عرفت الحب كهلا

وسافرت فيه حتّى النّدم. . .

هذه القصائد في البلاد كجارية

ليس لها شرف ولا همم

و هذه نادية

ماجدة في القلب أسكنتها

قسما

وأن لا يحتاج الحب إلى قسم "

يسير عبدالله في الطّريق إلى دار الثّقافة. تقفز إلى ذهنه أحزانه و أوجاعه. . . أحيا للمسرح. لكن لا معنى لمسرحي في مدينة صغيرة ولا مكانة لمبدع هنا. كم أنت قيد أيّتها المدينة!

أذرع شوارعك متأبّطا ظرفا كبير الحجم. أنساه أحيانا في المقهى أو في الحانة.

يقفز دعدع البوليس السرّي أمامي. يقهقه بصوت عال وهو يلثمني كالمشتاق ويكرّر:" عبد الله يا عبد الله يا أستاذنا العظيم. . . "

أتأفّف :

- أيّ أستاذيّة؟ جاوزنا الأربعين ونحن ننتظر. . .

يردّ مبتسما:

- أنت مبدع وإبداعك أقوى من الإجازة ومن الانتداب.

- الإبداع الجاد لا يوفّر ثمن الخبز. كم مبدعا في هذه البلاد يعيش الفقر. الإبداع مصدر ثروة للمنافقين والمدّاحين فقط.

يلتفت إلى الظّرف الكبير الذي أحمله:

- أمسرحيّة جديدة ؟. . . يحيا الإبداع

أقبع على ضفاف سمرقند. . .

تمرّ نادية. أتبعها وأتأهّب لمفاتحتها في الحب. هي فتاة ريفيّة وهي حديثة الظّهور بالمدينة. تمكّنت من مصافحتها يوما لكنّها أشاحت بوجهها عنّي ومضت. . .

عمّها عثمان لا يروق لي ولا يعتدّ به ولكن لا بأس سيكون مفتاحا مهمّا. سأكون في حاجة إلى احتساءة كبرى معه حتّى يمهّد لي الأمور. . .

بعد أشهر صارت تعرفني جيّدا. وصارت تلقي عليّ السّلام من حين لآخر وتبعث بابتسامة ساحرة. أعتقد أنّها تعلّمتها في المدينة. لكن جرت الرّياح بما لا تشتهي السّفن. جاءت أخبار سوداء. أضيف إلى القلب جرح آخر، لا يندمل. لقد هزمنا المنصب والحزب مرّة أخرى.

انضمّت نادية إلى جوقتهم و صارت موظّفة لدى علّالة الزّيني وأحاطت بها النّسور و الذّئاب وفي طليعتهم عبد الواحد.

تعثّر عبد الله في مدارج دار الثّقافة. لم يدرك الأمسية. تمتم مغادرا. ارتطم بالجدران. توغّل في ساحة السّوق الأسبوعيّة المقفرة. تبرّز تحت جدارها الطويل. سار يمينا وشمالا. مشى

خلفه صبية، حاولوا العبث به وهتفوا خلفه هازئين. هم يعرفونه جيّدا واعتادوا على العبث به. شاهدوه مرارا على الخشبة وشاهدوه مرارا يترنّح... توعّدهم وشتمهم وواصل خطواته المتعثّرة.

خطر له أن يذهب إلى نادية في دارها. يشعر أنّ فصلا ما مازال معها. رجع إلى الوراء. تعثّر في الظّلام وتاه بين الأنهج. توغّلت الكحول واستبدّت به. لم يعد يدرك شيئا. ضاع الشّمال والجنوب والشّرق والغرب. ضاعت الوجهة وضاع القلب. وتناثرت أوراقه التي كان يخفيها في جيبه الدّاخلي.

أوراق متناثرة من جيب عبد الله

ورقة أولى

لمن سنقول الشّعر الآن. . .

انهارت الجيوش وانهار الزّمان

لمن هذا الشّعر

ونحن اكتوينا

وهجرتنا الحسان. . .

ونادية علاّلة لها

وركح الرّقص لها. . . . . .

تاه القلب حتّى بلغ الصّحراء

والتقى غزالا

جرى خلفه جريا قد طال

ها أنا هنا

ضللت طريق الحسناء

والتي أحببت

ما زال رسمها معلّقا في السّماء

لك ذلك يا نادية. . .

أنت فاتنة وأنا رجل فقير. . . ألغتني المدينة وألغيتها. . . لا أنا في قائمات المنتدبين ولا المتقاعدين ولا المبدعين ولا النّاخبين.

. .

ورقة ثانية

إلى السّيّد وزير الثّقافة والمحافظة على التّراث

تحيّة طيّبة

إنّي الممضي أسفله مسرحي وشاعر ومجاز منذ سنوات عديدة تقدّم بي العمر وساءت ظروفي. . . أنشط في دور الثّقافة ولم أعثر على عمل وإنّي أهيب بسيادتكم التّدخّل لفائدتي وإلحاقي بإحدى المؤسّسات الثّقافيّة ولكم منّي جزيل الشّكر.

والسّـــــلام.

ورقة ثالثة

قصيدة أطلق لها السّيف

"أطلق لها السّيف

لا خوف ولا وجل

أطلق لها السّيف وليشهد لها زحل

أطلق لها السّيف قد جاش العدو لها

فليس يثنيه إلاّ العاقل البطل

أسرج لها الخيل ولتطلق أعنّتها

كما تشاء ففي أعرافها الأمل

دع الصّواعق تدوي في الدّجى حمما

حتّى يبان الهدى والظّلم ينخذل

وأشرق بوجه الدّياجي كلّما عتمت

مشاعلا حيث يعشى الخائر الخطل

واقدح زنادك وابق النّار لاهبة

يخافها الخامئ المستعبد النّذل

أطلق لها السّيف جرّده وباركه

ما فاز بالحق إلاّ الحازم الرّجل

واعدد لها علما في كلّ سارية

وادع إلى الله أنّ الجرح يندمل

لقد جاش العدو لها

فليس يثنيه إلاّ العاقل البطل"

صدّام حسين المجيد

ورقة رابعة

رماد ضوئك هذا اللّيل أم حجب أم ماء حزنك منهلّ ومنسكب
أطاعك الموت أم حطّ الأفول على ذراك أم نهشت من لحمك الحقب
ولم يزل لك في الآفاق متّسع ولم يزل لك في الآفاق مضطرب
وما طريقك في الآفاق ملتبس ولا طريقك في الآفاق منشعب

قصيدة الأمّة منصف الوهايبي

ورقة خامسة

سمرقند فجرا

الإهداء إلى عبدالله المسرحي: بداية نصّ سيكتب حتّى لا يظنّ أنّنا نفضّل عليه عثمان

. . . ضوء الصّبح يتقدّم. المدينة فارغة ورائحة القهوة تضوع في الفضاء. جسد ملقى قرب الشّجرتين. هو واحد من كثيرين يتسوّلون في النّهار ويقضون لياليهم في الحدائق والبنايات المهجورة. . .

سمرقند الصّباح فاتنة. كأنّها قباب، بخور يضوع، مسافرون يبكّرون.. .

شاحنات أمنيّة مكتظّة. الوجوه داخلها مكفهرّة. لا بدّ أنّ أمرا ما يحدث. هم ذاهبون إلى مكان ما. ربّما إضراب تلمذي أو طلّابي .

صباح آخر. . . يستنشق عبدالله رائحة سمرقند. . .

يخطو خطوات سريعة. مقهى سمرقند على الأبواب. لا بأس.

يبدأ اليوم في سمرقند وينتظر حتى تدبّ الحركة من جديد. .

ورقة سادسة

ما غاب عن صديقي وهو يمتدح عثمان الشّرقي

صحبني عثمان إلى احتفال جماهيري يقام في إحدى ساحات المدينة. و كنّا صديقين وندیمين في تلك الأيّام. دعوته بنفسي مشتاقا إلى جلساته .

وصلنا إلى السّاحة. وقفنا نتفرّج على الجمهور الغفير وعلى الفرق الشّعبيّة القادمة من كل الجهات. فجأة اكفهرّ وجه عثمان واختنق صوته وتوتّر. كأنّه تلقّى طعنة جارحة. تيبّس ريقه. و ألحّ على أن نغادر. . .

عرفت بعد ذلك، حين سقيته ما يريد من قوارير أنّه شاهدها. سكينة بنت العمدة بشير رفيقة الأمس وحبيبة القلب تنتهي تماما. لقد سقطت . لم يعد في الأمر صلاح. . .

هكذا كان عثمان يردّد تلك اللّيلة. . .

كانت ترفل في حلّة تراثيّة و تقهقه مع مجموعة من الفتيان والكهول. هي وطالبات جيء بهنّ لتزيين المشهد .

هكذا يفعلون في كلّ مكان. يختارون الحسناوات ليتصدّرن المجالس ويقبعن في الصّفوف الأولى كاشفات عن مفاتنهنّ للمسؤولين القادمين لحفل الافتتاح. . .

آه يا ابنة القرية. . .

آه يا رفيقة الزّمن الجميل. . .

لم أقل لعثمان إنّني أشاهد تلك الفتاة دوما ترفل معهم من مجلس إلى آخر. ولم أقل له إنّها غدت مومسا معروفة في هذا المكان وإنّي شاهدتها في أكثر من مكان تتأبّط أذرع الزّناة الذين يزنون بالبلاد وبالجهة وببنات الشّعب ولعلّها ستكون اللّيلة جارية لأحدهم في النّزل الذي سيقيم به ضيوف المهرجان. . .

لم أحدّثه عن رؤيتي لها مرّات عديدة ...

لم أقل له شيئا . . .

لم يعد ينفع ذلك الآن. . .

اخرس يا علّالة

(علّالة الزّيني...جمع في صيغة المفرد)

1

كنت في الدّاخل. أكدّس جرائدي وأوراقي وحذوي عبد اللّطيف وكنّا نبحث عن المعاني الضّائعة في الزّحام. نقرأ بعض الصّحف وبعض الأوراق. وكان جيب معطف عبد اللّطيف محشوّا ببعض الكتب التي ترافقه هنا وهناك. .كنّا نقرأ ونثرثر. نتحدّث عن ثقافة الجهة والبلد ونهزأ من ثقافة الرّداءة التي تطير ببعضهم إلى وهم المجد. وكانت أصوات أحجار "الدّومينو "تأتي من الطّاولات المجاورة.

فجأة انتبه الجميع. قرآن كريم. . .

سرت حيرة في النّفوس. فالإذاعة التّونسيّة لم تعوّدنا على بثّ القرآن في مثل هذا التّوقيت الصّباحي في حدود العاشرة إلّا في مناسبات وفاة الزّعماء العرب. انقطع الحديث وتسمّر جلساء المقهى انتظارا للخبر. تردّد السّؤال لدقائق:

- من قضى نحبه من الحكّام العرب هذا الصّباح؟

- هل تعرّض أحدهم للاغتيال؟

قال عمّار المرناقي وبصوت خافت وهو يهمس لجلسائه:

- هل هو الزيّن؟

- اسكت. . . المقهى يعجّ بهم. . .

خيّمت حيرة عميقة قطعها المذيع بصوته المألوف:

" هنا تونس، إذاعة الجمهوريّة التّونسيّة

تنعى رئاسة الجمهوريّة الزّعيم الحبيب بورقيبة الرّئيس السّابق للجمهوريّة. . . "

تعالت أصوات هنا وهناك:" الله أكبر. . . لا إلاه إلا الله "

همس بعضهم:" مات منذ أيّام. . . سمعت هذا الخبر لكنّهم ظلّوا يتسترّون عنه حتّى تنقضي قمّة المعلومات".

ردّ آخر:

- بل مات منذ أعوام. منذ أخرجوه منها وألقوا به هناك...

فتح صاحب المقهى التّلفزيون. القناة التّونسيّة تبثّ نبذة عن تاريخ الزّعيم. صوره وهو يصعد وينزل أمام النّاس ويصيح ويضرب الطّاولة. صوره وهو يعود في يوم النّصر أو يلتحم بالنّاس ويخطب في مؤتمرات الحزب أو يسبح في شاطئ سقانص. ثمّ صوره وهو يهرم وقد أحاطت به جوقة من حاشيته الشّهيرة. وختم الشّريط كالعادة كلّما تعلّق الأمر بسيرة بورقيبة وتاريخ البلاد بصور تعبرّ عن الحيرة وخطاب

التّراجع عن الزّيادات عقب أحداث الخبز :" ما ثمّاش زيادات نرجعو كيف ما كنّا. . . " ونبذة عن تونس السّابع من نوفمبر وأعادوا تلك الأسطوانة المعروفة. ..

لم يتمالك أحد الكهول نفسه و هو يشاهد الصّور التّلفزيّة.

لم يخش الوشاية وهتف :" يحيا بورقيبة. . . "

تمتم عمّار المرناقي:

- هو الذي حرّرها وبناها وشيّدها وأعلاها وأعطاها رايتها ووجهها بين الأمم"

انتفض علاّلة الزّيني وكان يجالس عونا سرّيّا:

- والسّابع من نوفمبر أيضا. . . لقد أعاد للبلاد وجهها المشرق.

قاطعه جليس آخر:

- وهل مازال للبلاد وجه؟ماذا فعل السّابع؟

حرّك العون السّرّي نظّارته و تأمّله بحدّة وأخرج ورقة من جيبه استعدادا للكتابة وردّ علاّلة بصوت متشنّج:

- لقد أنقذ البلاد والعباد. . .

قال كهل في سرّه :

- كفى كذبا. .أين هي البلاد؟ أين هو الحزب؟ أين أموال الشّعب؟ . . .

صمت عثمان وغلا داخله كالمرجل وهمس لي بصوت خافت:

- أكاد أقفز له . . . الكلب... أسكتوه وإلّا...

استشاط عمّار المرناقي:

- آه يا علاّلة. هل نسيت؟؟ أنا مفتّش سرّي متقاعد. كنت مستعدّا للمساس بكلّ من تسوّل له نفسه الإساءة للزّعيم. أحلت على التّقاعد بعد الانقلاب بأشهر قليلة. أعرف كلّ شيء عنك وعن زينك. اسكت يا كلب. . . أعرف أنّك تذكرني جيّدا و تذكر التّقارير التي سلّمتها لي إبلاغا عن أهلك هناك. ماذا أعطاني السّابع؟ خرجت من العمل فقيرا مفلسا ومريضا. لو لا الزّعيم لبقيت عاطلا عن العمل مثل أولادي القابعين منذ أعوام في المقاهي . . . "

ردّ علاّلة وقد احمرّ وجهه:

- يا سي عمّار. . . لا تخطئ. السّابع من نوفمبر اهتمّ بالشّباب وأعاد له مكانته.

انتصب عمّار غاضبا:

- اخرس ياعلاّلة. . .توّة يجيك نهار. لتذهب أنت والسّابع من نوفمبر إلى الجحيم. . .

تذكّرت عزّت إبراهيم الدّوري وهو يهتف في أحد القادة العرب ذات قمّة عربيّة حاشدة وفاشلة كعادة كلّ القمم العربيّة التي لم تقرّر شيئا مفيدا طوال التّاريخ العربي "اخرس يا عميل". . . إيه يا زمن. . . تلذّذت هذه الكلمة وأنصتّ إلى عمّار المرناقي مليّا . . .

2

"اخرس يا علاّلة"

هل تذكّر أنّك كنت تركض في الأنهج والشّوارع وترفع صورة بورقيبة وتهتف بحياته؟ وهل تذكر أنّك كنت تضرب النّقابيّين وتقضي اللّيالي في الحراسة؟ كنت تجري هنا وهناك تحلم بالشّغل والثّراء. ملأت الإدارات بمطلبك المرفق بشهادة العمدة بشير:

" يشهد العمدة بشير أنّك دستوري وبورقيبي ومن الشّباب المناضل ومن عائلة تنتمي إلى الرّعيل الأوّل. . . "

عيّنوك كاتبا لدى العمدة بشير. فاغترفت ممّا يغترف وشبعت ممّا شبع. كنت أذكى منه واستغلّيت أمّيته وسلبته أشياء كثيرة.

مرّت الأيام. أقيل محمّد مزالي ذات يوم صيفي حار وجاء رشيد صفر. لم يستمرّ طويلا فسرعان ما عزل وعيّنوا زين العابدين بن علي الذي جمع بين وزارة الدّاخليّة والوزارة الأولى .

فجأة تردّد الخبر في حذر وخوف. . .

- انقلاب. . .

- اصمت، لا ترفع صوتك. . . قل تحوّل وكفى. . .

بعد أيّام قليلة ظهر علاّلة من جديد. أقام في المدينة. أصبح يهتف بحياة بن علي ويركض مع الحزبيّين الجدد وينتقد زمن بورقيبة. . .

ذهبت توجيهات الرّئيس و"قافلة تسير" وتبدّل قرّاء الأخبار واختفت صور بورقيبة و اختفت القصائد التي كتبت عنه. وسكت الشّعراء الذين تغنّوا به وتغيّر كلام العمدة بشير ورجاله. صاح ياسر عرفات مرارا :" زين العرب ". وذبح العقيد معمّر القذّافي الخرفان استقبالا لبن علي في طرابلس واحتشد اللّيبيّون في الشّوارع استقبالا له. . .

نسي بورقيبة واختفى من البلاد. صار ذكره نادرا. فالحكّام الجدد محوا كل الماضي وراحوا ينسجون زمنا من الوهم. وحده حمّودة المهبول ظلّ وفيّا لنفسه. يخطب في المقاهي والمظاهرات والسّاحات محاولا تقليد بورقيبة:" الأمّة. . . الأمّة التّونسيّة وحركة التّحرير. . . اااااه. . . أنا حاربت

فرنسا. . . حاربت الاستعمار. . . آه" وأحيانا يقلّده في سنوات المرض" تو.. تونس. . . تونس يلزم تبقى حرّة. . . ".

3

. . . اخترقت سيدي بوزيد السّبات ذات ربيع[10]. تحدّت الرّجل الذي صار يوصف بصانع التّغيير ومنقذ البلاد والعباد وانتصر في انتخابات أفريل الفارط بنسبة عالية. . .

الأمطار الطّوفانيّة اجتاحت المنازل وعزلت مناطق كثيرة والحكومة لا تبالي. غضب الشّارع شعورا بالإهمال والتّناسي. فمنذ فيضانات نهاية السّتّينات والأهالي يطالبون بحماية المدينة من الفيضانات لكنّ الدولة تتجاهلهم. حاول النّظام امتصاص الغضب فخصّصت التّلفزة الوطنيّة ليلة للتّضامن نشّطها نجيب الخطّاب وقدّمت فيها تبرّعات من المواطنين وعزل الوالي وجاءت المساعدات. لكنّ الجراح كانت عميقة.

اعتدى المتظاهرون في تلك الأحداث على علاّلة الزّيني مثلما اعتدوا على آخرين. ضربوه وصفعوه بعدما ضبطوه يحمل

---

[10] إشارة إلى أحداث الفيضانات التي شهدتها ولاية سيدي بوزيد في تلك الفترة وتخلّلتها احتجاجات واسعة.

قائمة في أشخاص متّهمين بالمشاركة في المظاهرات وراج أنّه استولى على نصيب من الإعانات التي تهاطلت على الجهة. . .

غضبت سيدي بوزيد غضبا عابرا. فالبلاد تتغيّر ببطء والمهرولون يسرعون لتأييد النّظام ومباركته.

انتشرت اللّحى الطّويلة وازدادت أعداد المصلين وتكلّم الإسلاميّون كثيرا، في الشّارع وفي الجامعات و في المساجد. وكثر الحديث عن السّياسة. وصرنا نعتقد أنّه يمكننا قول كلّ شيء.

فجأة سرى برد مخيف وارتعدت القلوب خوفا وكثر الهمس:

- صمتا. . . دعنا من السّياسة. . . الجدران لها آذان.

- السّياسة لأهلها

- الخبز والحائط يا أخي. . .

- عاش حزب الديك.

كشّر النّظام عن أنيابه. زجّ بالكثيرين في السّجون. اختطفوهم من الشّوارع ومن المدارس والمعاهد ومن غرف النّوم. أخذوا عراة حفاة .

تجنّد علاّلة مع من تجنّدوا وسهروا اللّيالي في البرد وجابوا الأزقّة والمقاهي بحثا عن رائحة المعارضين.

4

في أواخر جويلية وأوائل أوت من كلّ عام، يرتعد المسؤولون الجهويّون والمحلّيون ارتعادا. يطوف بهم هاجس الرّحيل والعزل والشّماتة. ففي هذه الفترة تجرى التّعديلات والتّعيينات . . .

لم يكن اسمك مطروحا على الإطلاق فأنت لا تساوي شيئا ولا قدرة لك على استقطاب النّاس. عرفناك تجيد التّصفيق بحدّة في الصّفوف الخلفيّة وذئبا شرسا تنقضّ على الفريسة لتشي بها وتلقي بها في غياهب التّتبّعات السّرّية لكنّنا فوجئنا. . .

صدر اسمك في قائمة المسؤولين الجدد. لا أحد يعرف ماذا فعلت لتحصل على هذا المنصب وتصبح صاحب مكتب ومن وجوه الصّفوف الأولى التي تنتظر الوزراء أمام مقرّ الولاية.

ذبحت الخرفان في قريتك وأقمت وليمة كبرى. كان العمدة بشير في طليعة الحاضرين.اختليت به أنت وبعض خاصّتك. تقرّر أمر سكينة نهائيّا. لم يعارض، بل عدّ ذلك فخرا. . .

وعدت النّاس بالمساعدات والمشاريع وانتصبت في مكتب فخم .تقرع الجرس. فتأتيك السّكرتيرة .تغازلها أحيانا وتتهكّم عليها أحيانا أخرى وهي صاغرة.تسخر منها ومن جسدها وتنهرها. فأنت الحزب والحزب هو الدّولة والحياة . والتمرّد عليك يعني لها الطّرد من العمل في زمن لا يرحم.

5

مرّت سنوات منذ اعتليت منصبك وصرت اسما عاليا في هذه الرّبوع. سئمك النّاس وكرهوك. الحزبيّون أيضا يتذمّرون منك في الخفاء. كلّما حلّ موسم التّعيينات تكثر التّقارير والرّسائل الموجّهة ضدّك إلى الرّئيس حتّى يعزلك ويريح النّاس منك لكنّه أصم . . . يقول البعض إنّ الرّسائل لا تصل ويقول البعض الآخر تهكّما إنّ لك صلة ما بليلى وإنّك من زبانيتها المقرّبين.

ذئب أنت يا رجل. . .

خطاب للشّيوخ والمواطنين البسطاء الحالمين بالمساعدات والمشاريع تماطلهم وتسخر منهم في داخلك وخطاب سرّي لخاصّتك. ألاعيب ومرح ومشاريع خفيّة وجهاز من الوشاة يرصدون لك كل شيء. تصلك أخبار المعارضين والرّافضين من كل القرى فتنهال عليهم بلا رحمة ولا شفقة.

الأهالي يعرفونك جيّدا و الأجهزة التي تتعامل معها تستعدّ أيضا للانقضاض عليك يوما. الكلّ ينتظر سقوطك المدوّي.

ولكنّك مازلت تحلم بمنصب أكبر. تحلم بعضويّة مجلس النّوّاب واللّجنة المركزيّة للحزب .

لم تحصل على شيء من ذلك فانضممت إلى التّجمّعيّين المحتجّين على القائمات التي تمّ اختيارها في الانتخابات الأخيرة[11]...

أخفت وسائل الإعلام في السّنوات الأخيرة أنّ التّجمّع في سيدي بوزيد صار مجرّد هيكل ضعيف تنخره الانشقاقات والصّراعات. كثيرا ما تخاصم التّجمّعيّون وتصارعوا. اختلفوا حول القائمات واعتصموا وانسحب الكثيرون منهم غضبا

أو طردا. كان البورقيبيّون في طليعة المتحسّرين على الحزب وكانوا يعتبرونه منتهيا. خرّب الحزب ولم يبق فيه إلاّ بعض المتمعّشين وبعض الخائفين من القمع.

سنوات وأنت قابع هناك. تحرّك دمى مطيعة تلهث خلفك وتتراصّ في الصّفوف خدمة لك لكنّك في النّهاية دمية بيد

---

[11] إشارة إلى اعتصام وجوه تجمّعيّة في سيدي بوزيد احتجاجا على القوائم الانتخابيّة

أسيادك. . .أنت يا علاّلة الدّمية الكبيرة. بعت الجهة وهرّبت المشاريع وأفسدت البرامج.

6

عبد الواحد رجلك الخطير، رجل المهمّات الخاصّة السّرّيّة والعلنيّة. كهل مفتول العضلات، خشن الصّوت، يجيد الهتاف والتّرحيب بالمسؤولين، يرافقك في كلّ مكان. يقود سيّارتك ويتفاوض بصفته ممثّلا لك وينفّذ أعمالك الخفيّة والظّاهرة.

عبد الواحد هو العرّاب وصاحب الصّفقات السّرّيّة الكبرى...

هو جالب جرار الخمر وصيّاد الحسناوات.

وهو الصّوت الهاتف بحياة بن علي في كل الاجتماعات.

وهو الرّجل الذي يقود حملاتك الانتخابيّة.

هو الذي يقولها إذا سئل عن عمله:" مكلّف بمهمّة في المراسم الرّسميّة".

هذه المهمّة المزعومة اقتات منها طويلا. فهو يتنقّل في القرى قبيل الزّيارات الوزاريّة ويضبط التّرتيبات ويبتزّ البدو ويأخذ منهم المال والأغنام لبيعها بدعوى حاجات خاصّة للمراسم وبدعوى أمور سرّيّة لا يمكن شرحها. . .

عبد الواحد هو رجل الأسرار. هو الذي يختلس لك الأموال ويعقد صفقاتك ويجيئك بالخمور والحسناوات وينظّم جلساتك وهو الذي يتكلّم باسمك ويقود الإدارة في غيابك. يخاله السّذّج مسؤولا كبيرا وصاحب قرار وعلاقات والكثير منهم يقصدونه ولا يقصدونك لأنّهم يعرفون أنّك لا تردّ له طلبا وهو أكثر منك وضوحا، يطلب ما يريد دون لفّ أو دوران.

حين جاءت نادية وأمّها أشاروا عليها به. جرت خلفه كثيرا . لاحقته أمام الولاية حيث اعتاد الوقوف كلّ صباح مع جمع من المحتشدين ليهتف كلّما حلّ وزير. انتبه عبد الواحد لجمالها . عبث بها أيّاما ثمّ اقترحها عليك سكرتيرة فقبلت بلا تردّد. أنت أيضا لفحتك رائحة عطورها وهزّك جمالها .

لم يقنع عبد الواحد. امتدّ فساده إلى وردة. صار يرابط في دار وردة في غياب ابنتها وشيئا فشيئا سقطت الأقنعة.

هيّئ المنزل بأثاث ضخم وصار وكرا يرتاده بعض ضيوفك من كبار القوم وأصحاب النّفوذ.

مشى أصحاب المعاطف الطّويلة ليلا ونهارا في الحيّ وتابعوا السّيّارة الفخمة وكتبوا ما كتبوا وأنت مازلت تؤدّي الولاء لأسيادك وتوهمهم أنّ الأمور بخير وتهتف في الاجتماعات الموسّعة والمضيّقة بحياة الرّئيس وتجوب القرى وتغنم لحوم الخرفان وكؤوس اللّبن والعسل وتحلم بالتّعيين القادم.

كتب أحد قوم استفيد:

" شوهد علاّلة الزّيني يطرق باب إحدى العائلات في ساعة متأخّرة من الليل وقد خرجت له سيّدة ودفعته وطرحته أرضا ودعت له شبّان الحي الذين سخروا منه ورموا سيّارته بالحجارة. . . واستفيد أنّه كان مخمورا وقد تفوّه تجاهها بكلام بذيء وتبيّن أن المسمّى علاّلة قد أخطأ الباب إذ كان متوجّها إلى بيت سيّدة سيّئة السّمعة تسكن وحيدة مع ابنتها التي تشتغل سكرتيرة عنده واستفيد أنّ المدعو حوّل هذا البيت إلى بيت دعارة وأنّه ضبط في حالات مشبوهة وأنّ عبد الواحد شريك له في هذا الوكر. .."

7

بلغ الحاج عبد السّلام أنّ فلّاحين من جهة الرقاب[12] تحرّكوا احتجاجا على التّلاعب بأراضيهم واعتصموا أمام مقر ولاية سيدي بوزيد[13] فقرّر أن يتحرّك من جديد. ذهب إلى إدارة الفلاحة وإدارة الملكيّة ليبحث عن الرّسم البياني فلم يجد أثرا لاسمه. رفع قضيّة أخرى ولم يصل إلى نتيجة. . .

زيّفوا الوثائق. علاّلة زحف على أرضه واقتطع منها نصيبا ووردة وقّعت له وساعدته . هذا ما تتداوله الألسن.

كلّما تذكّر أرضه التي افتكّت منه ازداد حنقا. كتب الرّسائل والعرائض. راسل الوزير والرّئيس لكن لا أحد أنصفه أو أجابه...

على أرضه انتصب مشروع كبير وصار علاّلة يتصرّف في الملايين. لا أحد يعرف من أين جاءته الأموال. مشاريعه تنتشر في قرى كثيرة وأملاكه في المدينة كثرت. لكنّ الإشاعات

---

[12] الرقاب: من معتمديّات ولاية سيدي بوزيد

[13] إشارة إلى تحرّكات احتجاجيّة قام بها فلّاحو الرقاب في صائفة 2010

القويّة تقول إنّه شريك لشخصيّة متنفّذة. العائلة الحاكمة وصلت إلى هنا.

كتم الحاج غيظه أعواما وسلّم أمره إلى الله. علاّلة صار ثريّا وشريكا لهم. مغازة في المدينة وعمارة شاهقة. أموال الشّعب والحزب في جيبه. . .

التّقارير السّرّية كثيرة. مقاهي سيدي بوزيد تتحدّث عن شبكته النّاهبة وعروقه الممتدّة. يبيع الوظائف. يسلب النّاس ويملأ جيوبه.

أمنية لم تتحقّق

(سيناريو حالم و سرّي أعددته أنا
و عبدالله ذات جلسة)

(وصلت البرقيّة إلى القصر بعيد الغروب.

قرأها الرّئيس مرة أولى متمتما)

(رنّ جرس الهاتف . التفت الوالي .ارتعد واهتزّت أوصاله وهبّ واقفا)

- السّيّد الرّئيس ....أهلا و ألف مرحبا...

قاطعه بنبرة حادة:

- السّيّد الرّئيس...على اشكون تعدّي فيها...راني نلعّبك ونلعّب الحشرات اللي كيفك...

- العفو سيّدي...العفو....

ارتفع صوت الرّئيس:

- طلعت كلب...

ارتعد الوالي وأحسّ أنّها النّهاية والرّئيس يزمجر:

- توة تروّح. سلّم المفاتح.

اكتفى الوالي بعبارات:

- أمرك سيّد الرّئيس...حاضر..."

- اشنوّة هال....(كلمة بذيئة) اللي مخلّيه في سيدي بوزيد...علاش ما قتليش عليه...

ردّ:

- من يا فخامة الرّئيس؟

- من؟من؟ صار هوما برشة...علاّلة متاعك الّي تشكر في (كلمة بذيئة)...

- يعزل فورا سيّد الرّئيس...موش نا اللّي جبتو. جابوه الجماعة...

ردّ الرّئيس غاضبا:

- اشكون الجماعة؟...اشكون الجماعة؟

ثمّ ألقى السّمّاعة وظلّ يزمجر.

كرّر الوالي:

- سيّد الرّئيس...يعزل فورا...يعزل...

ضاع الجواب في الفضاء...أغلق الهاتف و ظلّ الوالي يهذي...

(في نشرة الثّامنة...كانت هناك أشبه بصاعقة...)

(موسيقى جينيريك الأخبار)

مرحبا بكم في النّشرة الرّئيسيّة للأنباء و في ما يلي موجزها:

(موسيقى)

***** رئيس الدّولة يجتمع بوزير الدّاخليّة ويقرّر تعيين وال جديد على سيدي بوزيد كما اجتمع فخامته بالأمين العام للتّجمّع الدّستوري الدّيموقراطي وقرّر إنهاء مهام السّيّد علاّلة الزّيني...**

***** منظّمات وأحزاب تونسيّة تؤكّد دعمها للمسار الدّيمقراطي في تونس العهد الجديد وتدين حرص بعض الأطراف على الاستقواء بالأجنبي .**

***** في الشّرق الأوسط الإدارة الأمريكيّة تؤكّد وقوفها إلى جانب مسار السّلام والرّئيس الفلسطيني محمود عبّاس يتّهم أطرافا بعرقلة المفاوضات....**

كان هذيانا. . .

"هيلا . . . هيلا يا مطر أغسلي أوراق الشّجر
الحلم مثل الورد يكبر والهلال يصبح قمر. . . .
طلّي من فوق الجبل دقّي على أبواب الأمل
في غيمة النّصر اللّي هل الخضراء تظفر في الشّعر
قطرة قطرة على الدّروب غنّي لعطش القلوب. . .
ضمّيني بلّيلي ريقي. وغطّي بالخافق رفيقي
مهما عثّرني طريقي المسيرة تستمر. . المسيرة تستمر
مقاطع من الأغنية الشّهيرة لفرقة البحث الموسيقي

كنّا نحلم دوما. في أشدّ لحظات اليأس كنّا نحلم وكان الحلم صعبا. . .حلمنا في كل مكان وهربنا إلى الخيال. ضحكنا وابتهجنا ونحن نعلم أنّنا سنعود إلى البيوت لنجد نشرة رديئة ومملّة تتكرّر منذ عقود:

*** رئيس الدّولة يشرف على اجتماع لمجلس الوزراء ويتّخذ قرارات هامّة لدفع نسق التّنمية والتّشغيل**

*** إشادة دوليّة بالرّئيس بن علي ومقالات صحفيّة تتحدّث عن المعجزة التّونسيّة. . .**

***حرم رئيس الدّولة تدلي بتصريح. . .**

ولكنّنا كنّا نحلم ونتوغّل في الحلم وننتظر صباحا ما. . .

. . . نتخيّل جميل عازر[14] ونقلّده وهو يقرأ أخبارا عاجلة على شاشة قناة الجزيرة. . .

" قالت وكالة فرانس براس في خبر عاجل أنّ انقلابا أطاح بالرّئيس التّونسي زين العابدبن بن علي الذي فرّ إلى وجهة غير معلومة . "

---

[14] قارئ أخبار معروف على قناة الجزيرة

ونضيف:

" ولكنّ وكالة الأنباء التّونسيّة لم تؤكّد الخبر بعد . . . "

اعتقدنا أنّهم لن يؤكّدوا يومها نبأ سقوطه وأنّهم سيواصلون سياسة التّكذيب والنّفي التي يعتمدونها حتّى لو اختفى. . .

يواصل جميل عازر:

"* فور ورود الخبر اندلعت مسيرات فرح في مختلف ولايات الجمهوريّة وقالت فرنس براس إنّ الآلاف خرجوا في مدنين و قفصة وصفاقس والقيروان وجهات أخرى. .

.

* من جهته رحّب العقيد اللّيبي معمّر القذّافي بهذا الانقلاب ودعا التّونسيّين إلى الوحدة الفوريّة و عبّر عن رغبته في العودة إلى اتّفاق جربة الوحدوي واعتماد الكتاب الأخضر وإقامة نظام جماهيري. "

وننتقل في مرحنا إلى نشرة أخبار إذاعة الشّرق الأوسط :"عبّرت الخارجيّة المصريّة عن متابعة مصر لما جرى في تونس وأبرزت انشغال مصر الشّديد بأمن تونس وسيادتها وحرصها على الشّرعيّة. . . "

هكذا كنّا نهذي كي نستريح قليلا من واقع جاثم على نفوسنا. لكنّ الأمر لم يحدث مثلما تخيّلناه. فالعقيد أطلّ علينا غاضبا بعد الواقعة وزمجر في وجوهنا:" ليش. . . ليش تونس ردّيتوها فحمة. . . لا حول ولا قوّة إلا بالله. . . شن دار لكم زين العابدين. . . لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. . . "

الجمعة 2010/12/17

قصد علاّلة الجامع المقابل للولاية ليؤدّي صلاة الجمعة. هو أيضا صار يرتاد المساجد لحضور صلاة الجمعة. يصلّي في هذا الموعد الأسبوعي فقط ليرصد بقايا المصلّين وليبحث في طرق صلواتهم. صاروا يميّزون بين المصلّي العادي والسّياسي ببعض الإشارات. . .

كان علاّلة يستعدّ لوليمة كبيرة بعد الصّلاة. أسرّ له عبد الواحد صباح اليوم أنّه سيجلب ضيفة جديدة. فتاة حسناء قادمة من قرية مجاورة. ستكون مفاجأة. هي تحمل شهادة جامعيّة وستجري" الكاباس" غدا السّبت وتبحث عن وسيط.

أرشدوها إلى عبد الواحد. لم يمانع و زعم لها أنّه يستطيع قضاء الأمر وأنّ سي علاّلة سيحلّ الموضوع.

" هاتف منه يساوي برقية تعيين في مكان جميل وممتع. "

يروج فعلا أنّ علاّلة يبيع الوظائف فهو من المقرّبين من العائلة الكبيرة.

أسرّ لها عبد الواحد أنّها لن تدفع ملّيما واحدا وأقنعها أنّ ليلة مع علاّلة تكفي لتحقّق حلمها.

جاءت إلى سيدي بوزيد يوم الجمعة. زعمت لأسرتها أنّها ذاهبة لتقضي اللّيلة عند زميلة لها للمراجعة والرّاحة وتجنّب مفاجآت الصّباح. فقد تنزل الأمطار أو تتأخّر وسائل النّقل وهي التي تقطن بعيدا. استوت عندها الأشياء . فالمهم أن تحصل على شغل وتلتحق بالتّدريس.

ضرب الموعد للمساء. . .

علاّلة محتاج لفسحة هامّة. فالجوّ خانق والوالي الجديد الذي عيّن آخر الصّائفة في سيدي بوزيد لا يبالي به ولا يعطيه اهتماما ولم يعثر بعد على باب يدخل منه إلى صحبته وصداقته كي يطمئن. . .

فشل في الوصول إليه .لكنّه يفكّر في خطة. لقد أخضع من هم أكثر منه حزما وصلابة وجعلهم رهن بنانه وأعطاهم الأموال وجاءهم بالنّساء وأدخلهم إلى العالم الخفي الذي

قاد منه هو وأصحابه ولاية سيدي بوزيد أعواما طويلة. . .
لم يفلت منه ومن أصحابه غير نفر قليل من المسؤولين لكنّه هزمهم في النّهاية وحاربهم في الخفاء حتى عزلوا أو نقلوا إلى أماكن أخرى. . .

كان الإمام يخطب وعلاّلة يسرح بخياله في اللّيلة الكبيرة التي تنتظره في دار وردة والتي ترك عبد الواحد يعدّ لها وفي الوالي الجديد الذي يجب أن يستولي عليه ويكبّله حتّى غلبه النّعاس. لم يستفق إلاّ حين شرع الإمام في مدح الرّئيس والدّعاء له و لحرمه بالخير وطول العمر والصّلاح والتّوفيق وخير السّبيل .

رفع يديه:" آمين. . . آمين "

تعلّم أنّه لا بدّ أن يبرز تفاعله مع هذا الدّعاء حتّى ينقل الآخرون ذلك في تقاريرهم ولا يلاحظ بعضهم أنّه غير متفاعل مع هذه الفقرة التي غزت جوامع تونس.

يجمعه الموعد مع عبد الواحد ووردة عند التّاسعة أمّا قبل ذلك فسيمرّ على مكتبه ويأخذ السّيّارة الإداريّة ويلتحق بأصحابه في مقهى بعيد مثلما اعتاد.

لا أحد يعتقد أنّ هذا الاجتماع اليومي بريء . . . الحزبيّون من الصّفّ المعادي لعلاّلة يشكّون في هذه الجلسات .

قوم "أستفيد" لا تفوتهم شاردة ولا واردة. وصلوا إلى هذا المكان بأساليبهم الخاصّة وكتبوا. . .

" أستفيد أنّ السيّد المحترم علاّلة الزّيني المسؤول بالحزب يعقد جلسات مشبوهة مع بعض الوجوه ومنها المدعو العربي القوّاد أو هكذا يسمّى في سيدي بوزيد وهو إطار مهم يطمح إلى ترقية تمرّ عبر علاّلة مقابل بعض الخدمات السّرّيّة. يمدّه بوثائق خاصّة ويساعده على تدليس بعض الوثائق التي يحتاجها لصفقاته وصفقات أصحابه وهو يواظب على الحضور وكلّما اختلى به عرض حلمه في التّرقية واستفيد أنّ من بين الجلساء أستاذ يدعى حمّودة وهو نقابي ومعارض مطرود، انخرط في التّجمّع منذ فترة قريبة وبدأ يحلم بتسلّق الرّتب. ونصّب نفسه عضدا مقرّبا من علاّلة. يساعده ويرافقه في الاجتماعات القريبة والبعيدة ويعدّ المحاضرات عن النّظام ويحضر منتديات التّكوين السّياسي و يساهم فيها . . . "

واستفيد أنّ من بين المشاركين في هذه الاجتماعات المريبة المدعو شتربة الهمّامي وهو أصيل ريف من أرياف سيدي بوزيد المنهكة. يرأس شعبة تجمّعيّة منذ مطلع التّسعينات . وهو أمّي لم يكمل دراسته الابتدائيّة. استطاع أن يحافظ على موقعه في رئاسة شعبة قريته. هزم المثقّفين والمتعلّمين وتربّع على الكرسي الوثير. نافسه أساتذة وموظّفون ممّن تمنّوا الظّفر بموقع حزبي يصنع لهم مجدا ويمنحهم امتيازات في العمل. هزمهم أكثر من مرّة. وهو يجيد استخدام "الماكينة الانتخابيّة". علاقته بعلاّلة متينة فهو الضّامن لبقائه في مهامّه وحتّى في المرّات التي يشعر فيها أنّ صندوق الانتخاب سينسفه يكون معه ويتدبّر له حيل الفوز. اجتماعاتهما يوميّة. يتطرّقان فيها إلى شؤون حزبيّة ويخطّطان للمواعيد الانتخابيّة. تجمعهما سهرات خمريّة في الرّيف. يذبح شتربة من خرفانه ويكدّس الخمور. القوارير الحمراء له بلا منازع والعلب لعلاّلة . تدور كؤوس الشّراب الأحمر وينزع شتربة جبّته ويغنّي. يتمايل علاّلة ثملا: " السّيّد الرّئيس موش موجود. . . أرجع غدوة. . . أنا علاّلة العظيم .

. . ". يهذي علاّلة بأسراره ويخرج هاتفه من جيبه. يهاتف عشيقته البعيدة . يواعدها على سهرة قريبة في ضواحي العاصمة في نزل فخم. يوصيها بأن تجيئه معها بصاحباتها . يريد أن يمازح شتربة فيقول لها بصوت عال:" وواحدة لسي شتربة ..."

يشتهي شتربة أن يذهب معه. هو أيضا يريد أن تكون له صاحبة من هناك وهو على استعداد لبيع الخرفان من أجلها.

علّالة لا يعلم ما يحاك في الخفاء ضدّه. قوم "أستفيد" ونسلهم مجنّدون لفضحه بغاية عزله أو حرمانه من المنصب القريب الذي تروج حوله إشاعات كثيرة. يريدون إبطال هذه الصّفقة التي سيكون بمقتضاها علاّلة واليا على جهة من جهات الجمهوريّة ويخلفه في منصبه الحزبي الأستاذ حمّودة حسب الإشاعات الواردة من هنا و هناك.

***

خرج علاّلة من الجامع فشاهد حشدا من النّاس أمام الولاية. يهتفون ضدّ النظام. توقّع أن يكون تجمّعا نقابيّا

معتادا. لقد اعتاد نقابيّو التّعليم الثّانوي منذ مدّة على الاحتجاجات. ماذا يفعل لهم؟ لقد نصح منذ مدّة بتأديبهم ولكنّ السّلطة تتغاضى عنهم .

اعترضه عون أمن سرّي . فبادره قائلا:

- اضربوهم. لا تنتظروا أوامر من أحد. لقد استأسد هؤلاء النّقابيّون. لا بدّ من ضربهم والتّصدّي لهم. هم يشوّشون الوضع العام ويفتعلون المشاكل. ماذا يريدون؟؟

أسرّ له أنّ الأمر مختلف:

- بائع خضر أحرق نفسه أمام الولاية.

كانت الأصوات الغاضبة ترتفع والحشود تتدفّق. تسلّل إلى مكتبه في لجنة التّنسيق. انهمك في مهاتفة المسؤولين ومتابعة الوضع. يعلم بعضهم ويستشير البعض الآخر ويحرّض الآخرين على الالتحاق والتّصدّي للمحتجّين وضربهم إن لزم الأمر.

راج الخبر. . .

شاب أحرق نفسه أمام الولاية والنّاس يتجمّعون. . .

ورد الخبر في الجزيرة المغاربيّة عند السّاعة العاشرة ليلا. . :" أقدم شاب يدعى محمد البوعزيزي [15]على إحراق نفسه أمام مقر محافظة سيدي بوزيد ".

كان يدفع عربة الخضر كلّ يوم. يبيع الخضر والغلال في مدينة لا شغل فيها. يكدح بحثا عن لقمة عيشه. جاءه أعوان البلديّة. افتكّوا منه ميزانه. تشاجروا معه وصفعته الشّرطيّة.

ثار وجرى هنا وهناك. حاول الاتّصال بالمسؤولين. صدّه أعوانهم وحجّابهم. غلى الدّم في عروقه. فسكب على نفسه البنزين وأشعل في جسده النّار.

لم يكن أحد يعرف أنّ تلك المقولة الشهيرة:" اليتامى زعماء العالم" ستظهر مرّة أخرى وفي هذه المدينة. . .

---

[15]محمد البوعزيزي :من سكّان حي النور بمدينة سيدي بوزيد بتاريخ 29مارس 1984 وهو مسجّل على أوراقه الرسمية تحت اسم طارق. مات والده الطيب وهو طفل في سنواته الأولى وتركه في عائلة فقيرة. لم يكمل دراسته وانقطع من الثانوية لكنّ العالم صدّق أياما أنّه من حملة الشهائد العليا.

ذاكرة الجمعة الأولى

1

يوم شتوي كئيب. لم يكن البرد شديدا، ولكنّ السّماء كانت غائمة. المدينةالصّغيرة تشعرني بالفراغ والإعياء. أحيانا تغمرني فرحة تركها والاستقرار في باديتنا والاحتفاء بما فيها من عزلة ولكنّني أحبّها وأعشقها وأحلم برسمها بكلماتي...

كنت بدأت قبل هذا بسنوات كتابة نصوص سرديّة وشعريّة عنها نشرتها أسبوعيّا وحملت اسمها عنوانا. كان هذا يكفي ليعبّر عن الحلم. ماذا يعني أن يتكرّر هذا العنوان في ملحق أدبي «سيدي بوزيد» وهي المدينة التي لا أسوار ولا أساطير فيها؟ كنت أحلم برمزيّتها ورمزيّة مقاهيها ومبدعيها ومجانينها. كنت ألوّح بذلك في نصوص عديدة لفّها النّسيان ومرّت في صمت.

صباح هذا اليوم أبكرت. أحببت أن أملأ رئتيّ بعطر مقاهيها وأن أجالس الأصدقاء حتّى يحين موعد العشيّة مع الشّاعر

جمال الصليعي الذي سيأتي من دوز في إطار أمسية شعريّة تنظّمها مندوبيّة الثّقافة. هي الحلقة الثّالثة من سلسلة لقاءات أطلقناها آنذاك طمعا في تحريك السّواكن الثّقافيّة وبحثا عن منافذ للكلام. استضفنا في الحلقة الأولى محمد الصغير أولاد أحمد وفي الثّانية منصف الوهايبي وكان الموعد الثّالث. .

2

بحثت طويلا في أوراقي عن الكلمة التي قدّمت بها الشّاعر جمال الصليعي فلم أجدها. لعلّها مازالت بين الأوراق وسأعثر عليها يوما...

تحدّثت عن جمال أكثر ممّا يريد البعض...

عدت إلى البدايات...

لم أعرف جمال ولم أسمع به من وسائل الإعلام العاديّة. فهو مغيّب ككل المختلفين. أبناء دوز هم من قدّموه لي ولغيري من الطّلبة. هم من جعلونا نعشقه قبل أن نراه. كان أبناء دوز يجيئوننا بقصائده مكتوبة بخط اليد . يحملونها إلينا مع عبابيد التّمر وكنّا منبهرين بها في زمن بدأت القصيدة العربيّة تشعر بالضّيق والحصار.

ثم كانت إحدى اللّيالي الحاشدة، دوّى صوت جمال في مدرج ابن خلدون في كلّية الآداب في القيروان وتركنا مشدوهين . حطّ على جراحنا وأوجاعنا وأسئلتنا.

أنا المشغول بالأيام أمضي

إلى زمن وبي زمن عقيم

وبي أهلي وبي قلقي وشعري

وبي قمر تكوّره. . الهموم

أحدّث عند وادي النّمل نصّي

بما أخفي ولا تخفي الكلوم

3

كان الفضاء حاشدا كما كلّ مرة جمعنا فيها هذا الشّاعر. تكرّرت اللّقاءات في مدينة سيدي بوزيد خلال أمسيات عديدة، ولكنّه ظلّ دوما مطلبا ملحّا كلّما أردنا تحريك السّواكن وإذكاء روح الشّعر والكلمة.

4

تجوّلت في فراغات المدينة حتّى نال منّي الإعياء والتّعب. عرّجت على محطّة سيّارات الأجرة ظهرا.المصلّون يسارعون للالتحاق بصلاة الجمعة في الجامع المجاور. لاحظت حركة ما لم أبال بها ولم أتوقّع أمرا استثنائيّا. خلت الأمر نوعا من المشادّات التي تحصل أحيانا هنا و يتحلّق حولها النّاس . وهو سلوك فضولي متكرّر في المدن الصّغيرة حيث مشهد «الحضبة» يعدّ أمرا مألوفا.

5

في حدود الثّالثة حلّ جمال.

قرأت ورقتي ثمّ أحلت له الكلمة فأرغى وأزبد ونزل وصعد وهو يجول بنا في عالمه الشّعري. لاحظت غياب العديد من الأصدقاء ممّن كانوا ينتظرون هذا الموعد بشغف منذ أيّام وبدأ الهمس يتسرّب محتشما :" شاب أحرق نفسه أمام مبنى الولاية " و" حشود بشرية تحتجّ...".

اقتربت من جمال وهمست له طالبا أن يقطع الأمسية وأن نلتحق بالنّاس. وانتهى اللّقاء على عجل...

6

أمام مبنى الولاية كانت عواطف الجماهير تزداد اشتعالا. كان إحساس النّاس بالألم والظّلم واضحا. فالصّورة فظيعة. مكثنا برهة من الزّمن. هاتفت صديقا كان قريبا من الحشود وحاضرا منذ البداية وانتظرته بحثا عن مزيد التّفاصيل. تأخّر عنّي وسائق شاحنة النّقل الرّيفي التي ستقلّني إلى البادية يهاتفني و يستحثّني على الالتحاق بالمحطّة فهي الرّحلة اليوميّة الأخيرة ومقعدي هو الأخير. سارعت إلى المحطّة.

حشرت مع الرّكّاب في القسم الخلفي للشّاحنة ورحت أتحدّث عمّا جرى، محاولا تحليل الوضع الخطير وتذكيرهم بأنّ البلاد تختنق. تمتم بعضهم بكلمات قليلة وهمهم البعض الآخر، لمزني بعضهم طالبا الصّمت ورمقني البعض الآخر بنظرات شرسة احتجاجا على ما أقول. وصلت إلى البيت بعد الغروب. أخبرتهم بما يجري في سيدي

بوزيد، ظنّوا أنّني أتحامل كعادتي وأضخّم الأشياء وأتوهّم . لم يأبهوا كثيرا لما أخبرتهم به. فهم يعرفون أنّ كلّ التّظاهرات والاحتجاجات تقمع بسرعة في النّهاية وتطمس معالمها وتخفى.

جلسنا في المساء إلى مائدة "الدّومينو" وحذونا قناة الجزيرة. كنّا ننتظر النّشرة المغاربيّة التي أغرمنا بها في تلك الفترة . فجأة انتبهنا. إنّها سيدي بوزيد التي لا تذكر في وسائل إعلام البلد إلاّ نادرا. تنادينا جميعا وظلّ أكثرنا واقفا ، يتفرّج باعتزاز و انبهار. كان يكفي أن تظهر صورة مدينة سيدي بوزيد لنشعر بالابتهاج.

انتبه إنّها «سيدي بوزيد» على قناة الجزيرة. وهاهي الحشود الغاضبة تتراصّ أمام مقر الولاية، وصل الخبر إلى العالم. ستكبر الحكاية. هكذا قلنا بأحلام بسيطة، تلك اللّيلة بتنا نحاول تشغيل الإنترنت في هواتفنا. فجهتنا غير مربوطة به ، ولم يكن لدينا اهتمام كبير به. استطعنا بصعوبة أن نلج النّات عبر هواتفنا و شرعنا في البحث بكل دهشة ...

السّبت 2010/12/18

اختلط النّاس في سيدي بوزيد. مواطنون قادمون إلى السّوق وتلاميذ يغادرون معاهدهم بمناسبة عطلة الشّتاء. ساروا واحتجّوا وتصادموا مع رجال الأمن وبدت مدينة سيدي بوزيد ثكنة مغلقة.

تسوّق عثمان الشّرقي هذا اليوم. جلس في سمرقند. لم يكمل ترشّف قهوته. قفز وانضمّ إلى المسيرة. صرخ بأعلى صوته منددّا بالنّظام وردّد مع المحتجّين:" التّشغيل استحقاق يا عصابة السّرّاق " . .

الحرّاس المدجّجون بالسّلاح في مداخل الشّوارع والشّباب الغاضب يتظاهر ليلا ونهارا ويواجه ببطولة واقتدار. تصبح المدينة دخانا و تلوح آثار حرائق الإطارات المطّاطيّة في كل مكان، على أرضيّة الطّرقات والمحلاّت وفي غيرها.

ذكرت سيدي بوزيد في كل القنوات وكل الأحزاب وظلّت جرائد البلد تمدح النّظام وتقلّل من شأن الحادثة. تجنّد فريق من المراسلين والصّحفيّين وراحوا يمحون الخطى. . .

" الزّين يحب سيدي بوزيد. . . الزّين هو الذي طوّر سيدي بوزيد . . . المشاريع التّنمويّة قادمة. . . هذا شغب. . . "

الإذاعة والتّلفزة تجترّان الطّريقة الإخباريّة الرّديئة التي حفظناها عن ظهر قلب:" جدّ صباح اليوم. . . . " أو " أعلن مصدر رسمي. . . " وتلوكان تلك البيانات التي تتحدّث عن الاستقواء بالأجنبي والعمالة وعن الفئة المعزولة التي تغار من إنجازات تونس وتحاول ضرب استقرارها الذي ينظر إليه العالم كنموذج. يا لهذه الأسطوانة المخادعة التي سمعناها أعواما! . .

عقد علاّلة الاجتماعات السّرّيّة بأعضاده ودماه. حثّهم على اليقظة المستمرّة للدّفاع عن مكاسب البلاد وأرسل برقيّات الولاء والتّأييد. . .

"نحن معك. . . سيدي بوزيد معك. . . الشّعب معك. . . "

كذبة ردّدها علاّلة الزّيني منذ أعوام ولكنّ الحقيقة ظلّت خفيّة. . .

أرسل بن علي بعد أيّام وزيره للتّنمية وأعلن جملة من القرارات. تلقّفها العملاء والمأجورون وراحوا ينشرونها

ويبيّضون بها وجه النّظام. وتولّت أعداد من الصّحفيّين شدّ أزر النّظام وحلّ بعضهم بالمدينة وراحوا يقتفون آثار الغضب ويمحونها بجرّة قلم. يحاورون علاّلة والأستاذ حمّودة وغيرهم من الدّمى ممّن سمّوهم عقلاء المدينة . ادّعوا جميعا أنّ ما حدث مجرّد شغب وأنّ ولاية سيدي بوزيد وفيّة للنّظام و" على العهد لصانع التّحوّل ".

الأستاذ حمّودة، الحاصل منذ فترة ليست بعيدة على رضاهم وتقديرهم والحالم بمستقبل جديد والموعود بمنصب سياسي وشيك اعتاد منذ أشهر أن يكون في طليعة صفوفهم. يحضر الجلسات التي تعقد في الولاية ويتدخّل فيها ويصبح في طليعة الواقفين أمام الولاية استقبالا للوزراء والمسؤولين الذين يحلّون بالجهة. وهاهو هذه الأيّام يلعب دوره معهم. وتظهر صوره على الصّحف واحدا من العقلاء أو ممّن لعبوا دور رجال المطافئ.

2011/01/13

"فهمتكم. . . غلطوني. . . سيحاسبون. . . ألمي وحزني كبيران..."

لم تنفع خطابات الرّئيس المرتبكة والمهدّدة. وجاء الخطاب الثّالث.

تكلّم بصوت أجش. اعترف بالخطأ والإحباط. أعلن وقف إطلاق الرّصاص وعدم التّرشّح في الانتخابات الرّئاسيّة القادمة وإطلاق الحرّيّات.

أعادها مرارا بصوت مرتبك:"... فهمتكم. . . فهمتكم. . . غلطوني ".

خرج المدّاحون وباتوا يتظاهرون فرحا ويرقصون على واحدة ونصف أمام مقرّالولاية. وأصبحت الصّحف مادحة، مهلّلة لخطاب البارحة وأطلقت ألسنة القنوات التّلفزيّة فجأة.

خرج علاّلة وعبد الواحد والأستاذ حمّودة ونادية وسكينة وغيرهم من الدّمى يركضون ويهتفون ويعبّرون عن الفرح ويتبادلون التّهاني والمشروبات لإيهام النّاس بالانفراج وهرع

شتربة الهمّامي من الرّيف معزّزا بعشرات المواطنين ممّن حشرهم في شاحنات و جاء بهم.

في هذه اللّيلة انتشى عثمان الشّرقي ورقصت ذاكرته فرحا وهو يشاهد مبارك صالح لأوّل مرّة منذ سنوات على إحدى الفضائيّات الأجنبيّة. فرك عينه وتثبّت من الكتابة والصّوت. هو فعلا مبارك صالح رفيق الشّباب. . كان يتكلّم من الخارج.

" معارض تونسي في المنفى "

هكذا قدّمته المذيعة التي كانت تدير الحوار على قناة "فرانس 24".

كان ينتفض ضد النّظام، مدينا العنف الذي تعرّضت له تالة والقصرين والرقاب ومناطق أخرى وداعيا إلى رحيل رموز النّظام، مطالبا بإطلاق سراح حمّة الهمّامي فورا. . .

ابتهج عثمان. بثّ فيه ظهور مبارك صالح روحا جديدة.

هو على العهد إذن. لم يتغيّر ولم ينحن مثل كثيرين ...

الجمعة 2011/01/14

ليصْمُتْ إذنْ كلُّ شيءٍ هنا

هذه الجُمعَهْ

رفيفُ العصافيرِ في فجرِ تونس الخضراءَ..

أجراسُها القُزحيّة ...

أشجارُها إذْ تغنّي..

لِيَصْمُتْ إذنْ كلُّ شيءٍ

رنينُ الهواتفِ في كلّ يد

ورنينُ المعاولِ في كلّ يد

لِيَصْمُتْ إذنْ كلُّ شيءٍ هنا

هذه الجُمعَهْ

عويلُ النّساءِ على جارنا وَهْوَ في بيتهِ يُحْتَضَرْ

هذه الجُمُعَهْ

ضحكاتُ البناتِ الجميلاتِ. . يهْرَعْنَ تحتَ الرّذاذِ..

إلى المدرسهْ

ليكفَّ المطرْ

هذه الجمُعهْ

وليعلّقْ هنالكَ أجراسَ بلّورهِ

في الهواءِ وفي الغيمِ

وليتنظرْ

دقّة السّاعة الخامسهْ

ولهُ بعد ذلك أن ينهمرْ

ولْيؤجّلْ إذنْ جارنا موتهُ

قليلا إلى الخامسهْ

مقاطع من تمرين على كتابة يوم الجمعة لمنصف الوهايبي

الحشود تتدفّق من كلّ صوب. نظام منهار. حزبيّون يرتعدون من المحاسبة التي أعلنت البارحة. الهدوء لم يعد مثلما زعمت مصادر إخباريّة. وزارة الدّاخليّة محاصرة بالشّعب الغاضب الذي التاع طويلا.

بعد العصر،تسرّبت إشاعات كثيرة وأعلنت القناة الوطنيّة أو قناة تونس7بالخط العريض قرب بث خبر هام جدا.
خرج الوزير الأول محمد الغنّوشي مرتعدا. أعلن أنّ منصب الرّئيس صار شاغرا الآن.
هرب بن علي. . .
سقط السّابع. . .
الآن تخرج منها ملعونا. . . " أخرج منها يا ملعون" هذا عنوان رواية لصدّام حسين ينطبق عليك اليوم .أخرج يا ملعون وتضوّر في السماء. كنّا نتابع الفضائيّات وهي تنقل لنا أخبار رحلتك الأخيرة . قيل لنا إنّك تبحث عن مأوى وإنّ مطارات العالم ترفضك - تبيّن أنّ ذلك كان كذبا ويدخل في لعبة ما لم تنكشف بعد - أين أصحابك يا رجل؟ أين أولئك الذين كان إعلامك يزعم أنّهم اعتمدوا مبادراتك وأفكارك؟ أين من أعطوك الأوسمة والجوائز والشّهادات العلميّة تزلّفا؟"
تخرج منها ملعونا. . .يلعنك شعب بأكمله حتّى الذين كانوا يمدحونك ويجاملونك. تونس الآن تسهر مسرورة وأنت في السّماء تبحث عن مأوى والمحامي عبد النّاصر العويني في

شارع بورقيبة بالعاصمة يعبّر عن فرحتنا العارمة وعن كبتنا السّياسي الطّويل ويصرخ عاليا:

" تحرّرنا. . . تحرّرنا. . . بن علي هرب. . . "

كم تمنّينا منذ زمن أن نخرج جميعا في هذا اليوم ونركض ركضا ونعبّر عن فرحنا ونمزّق صورك ولكنّ الظروف حرمتنا. حرمونا من مسيرات مليونيّة للتّعبير عن الفرح العارم.

جاءت أخبار العصابات والسّيّارات التي تهاجم النّاس وعمّ الخوف والهلع وجرى النّاس في اللّيل مدجّجين بالعصي والسّكاكين لمحاصرة هؤلاء الذين قيل إنّهم من رجالك. . .

السبت 15جانفي

احتسى عثمان في المدينة وعاد إلى القرية عند الغروب. خطر له أنّ سكينة التي علم أنّها تقيم منذ أيّام عند والدها العمدة بشير قد تمرّدت هذه العشيّة وعادت إلى طفولتها البهيجة ومزّقت عهود علاّلة وطلّقته. هو مستعد ليتزّوجها لو حصل ذلك. . .

مرّ بالدّكان. وجد بعض أتباع العمدة ورئيس الشّعبة يتلهّون بلعب الورق كأن لا شيء يحصل وحولهم بعض الوجوه السّاخرة منهم تتبادل الغمز واللّمز شماتة في سقوط سيّدهم. وجد وجوها كانت تهادن العمدة وتشي له حتّى يحقّق مصالحها. هدر فيهم دون خشية .

سار نحو الحوش القديم .لمح نورا يضيئ الأركان المظلمة. اقترب ليستطلع الأمر في حذر. غمرته نسائم الفرح. مرّت سنوات يا أخي. سنوات طويلة. . . سنوات مريرة . . .

ارتمى في حضنه وبكى كما لم يبك قط. . .

النّاصر الشّرقي وصل فجأة إلى القرية الصغيرة. أطلقوا سراحه. لم يجد شيئا. الدّيار مقفلة والوالدة محبوبة تقبع وحيدة في الظّلام والجامع القديم مغلق.

تردّد الخبر فتسلّل الأهل فرادى ومجموعات. احتضنوه وقبّلوه طويلا. لم تبصره الوالدة فبصرها ضعف ولكنّها عرفته من خلال صوته وزغردت فرحا وراحت تحدّثه عن السّنوات الفارطة وعمّا جرى. لم تترك شيئا إلا وحدّثته عنه. حدّثته عن وردة وما تسمعه عنها من أخبار ترد كل يوم سوق. وذبح الحاج عبد السّلام شاة احتفالا به.

آه يا عثمان. . .

لم تكن علاقة عثمان بالشّيخ النّاصر جيّدة. كانت بينهما خلافات شديدة لكنّه ظلّ يذكره في السّنوات الأخيرة ويدافع عنه وحاول زيارته في السّجن غير أنّهم لم يسمحوا له. . .

لم يكن النّاصر يتوقّع يوما أن يعود إلى هذا المكان. و لا أن يخرج إلى الحياة. امتزجت فرحته بذهول شديد. لم يزعجه غياب وردة. لقد نسيها منذ علم في السّجن بطلاقها منه. سأل عن نادية. فتمتم الجماعة خوفا عليه من الصّدمة. .

.

تمشّى أمام بيته متنفّسا نسمات الحرّيّة ومستعيدا السّنوات الطّويلة على وقع تعبيرات القوم وكلماتهم:

- إنّ الباطل كان زهوقا. . .

- جماعة "الزين" فعلوا بنا ما لم يفعله عاقل. . . مشّطوا ديارنا وعذّبونا. . .

- إنّ الباطل إلى زوال. . .

- حتّى الجامع أوصدوه.

حان وقت الصّلاة. تململ الرّجال وتهامسوا. قرّروا فتح الجامع. خلخلوا أبوابه بأرجلهم. فالمفاتيح استولى عليها رئيس الشّعبة والعمدة بشير منذ زمن. كان ذلك أيّاما بعد اعتقال الشّيخ النّاصر. جاؤوا بالحسني السّكّير وعيّنوه إماما.

- الله أكبر

الحسني دفعة واحدة. . . الحسني الذي لا يصحو من سكر. . يسكر من مال العمدة مقابل الوشايات والخدمات الأخرى التي يقدّمها له. . .

- نعم جاؤوا به لكنّ النّاس هجروا المسجد. . .

في ليلة من اللّيالي سلّمهم المفاتيح ومضى. . .

- عيب . . . عيب. . .

فتح الجامع. قام أحد الشّبّان ورفع صوت الأذان ودفع النّاس بالنّاصر الشّرقي ليؤمّهم. . .

أبلغ بعض الوشاة العمدة بالخبر فلزم الصّمت .

رنّ الهاتف في جيب الحاج عبد السلام فانفرجت أساريره:

- أرضك سترجع. لقد فرّوا. مرّ ملثّمون بالحقل وأفسدوا ما فيه من معدّات. . .

غدا سترجع زياتينك الشّامخة التي حرمت منها أعواما. . .

غدا سيكون لك أن تقف أمام القضاة والصّحافة وتتحدّث بكل صراحة عن المظلمة التي تعرّضت لها. . .

2011/01/16

فجرا اتّجهت وردة نحو محطّة سيّارات الأجرة. رصّفت حقيبتها ومضت. لا أحد يعرف أين ستذهب باستثناء نادية. أوصتها بأن لا تبوح بالسّر إلى أحد وأن تتّصل بها بعد أن تهدأ الأمور. لم يعد ممكنا أن تمكث هنا. حياتها في سيدي بوزيد صارت خطرا وما عليها إلاّ أن تبحث عن مكان آمن، ارتأته عند قريبة لها في ريف من أرياف القيروان. . .

اهتزّت منذ علمت أنّ النّاصر الشّرقي شوهد صباحا في سيدي بوزيد، يقتفي خطى عثمان. قد يفعلها ويأخذه إليها. لحظة لم تنتظرها إطلاقا. . .

تعبت من السّير. الحقيبة ثقيلة. توقّفت تلتقط أنفاسها وتتذكّر الزمن. . .

هي الدّنيا لا تهدأ على حال. انقضى الأمس. مزّقوا صور ليلى وزوجها واختفى الحزبيّون. لم تكن تعتقد يوما أنّ النّاصر

الشّرقي سيخرج. هي في ورطة. تعرف أنّه لن يفعل شيئا في النّهاية فهي طليقته قانونيّا وأيّ اعتداء عليها سيعيده إلى السّجن لكنّها تخشى تحريض عثمان الذي يبحث عن فرصة انتقام.

كلّهم سيقفون أمام النّاصر وينقلون له ما جرى ويتحسّرون على الشّرف والكرامة. كلّهم سينتصرون له وسيتعاطفون معه.

2011/01/18

نادية تهتف مع الجموع الغفيرة التي خرجت ابتهاجا بالنّصر. كان الأستاذ حمّودة يسير في الصّفوف الأولى . يسير جنبا إلى جنب مع رفاق الأمس ممّن تركهم يوما. . .

" يسقط جلاد الشّعب. . . يسقط حزب الدّستور. . . "

رفعت نادية لافتة كتب عليها" العمّال يطالبون بحقوقهم". أخذت الكلمة. تكلّمت عن الاستغلال، عن الاستعباد، عن الرّق وعن استغلال الشّباب في العمل من طرف العصابة. طالبت بمحاكمة رموز الفساد. طالبت بمحاكمة علاّلة الزّيني وعبد الواحد وغيرهما من الذّئاب. . .

تمشّى الأستاذ عبد الله المسرحي منتشيا في الصّفوف. يشعر ببهجة شديدة. وينسى أتعاب سنوات البطالة ومعاناة الإبداع. لم ينتبه إلى نادية وهي تسير في الصّفوف الغاضبة. . .

***

راج أنّ عبد الواحد مفقود. زوجته تحدّثت عن اختفائه. لم تعثر له على أثر. خرج ليلة المسيرات الكاذبة ولم يعد. هي خائفة عليه لكنّها تعرف أنّه يستحق كل عقاب. أمّا علاّلة فحزين في مكتبه. الأرض تدور به. انكبّ على إزالة صور الزّين وأوراق الحزب من مكتبه. يغمره الحزن والحيرة ويفكّر في قفزة جديدة. خطر له أن يعلن استقالته من الحزب قريبا وأن يتبرّأ منه و يعلن تأييده للثّورة المباركة على غرار الكثير من الحزبيّين.

نادية أيضا لم تأت ولم تفتح هاتفها. حاول مرارا ولكنّه لم يستطع الاتّصال بها. هاتف عبد الواحد أيضا مغلق. ربّما قبضوا عليه مثلما تردّد. .

اشتدّ الهتاف. . .

موجة الغضب هادرة. هذا هو اليوم الذي انتظرناه طويلا.

. . . كنّا نحسبه بعيدا لكنّ المفاجأة حصلت. . .

تقدّم عثمان الشّرقي المسيرة هاتفا:" تونس حرّة حرّة والتّجمّع على برّة " و" أوفياء أوفياء لدماء الشّهداء". سار

إلى جنبه النّاصر الشّرقي ونادية والحاج عبد السلام وآخرون. . .

سمع علاّلة أصواتا تقترب. فهم أنّهم جاؤوه. دخلت المسيرة المقرّ. اتّجه المتظاهرون إلى مكتبه وهم يهتفون:" علاّلة ديقاج. .. ديقاج. . . ". لحظات مثيرة لم يعش عثمان الشّرقي أفضل منها. أحسّ بالفرح يأتي دفعة واحدة.

تسلّل علاّلة من الباب الخلفي. تفطّنوا له وهو يحاول الخروج بسيّارته. حاصروه وافتكّوا منه السّيّارة الإداريّة. اقتربت منه نادية وصرخت في وجهه:" يا مجرم " . همّ عثمان بضربه. منعه النّاصر وحال بينهما. حلّت شاحنة عسكريّة على الفور. تقدّم إليه جنديّان و أخذاه وسط هتاف العشرات من المتظاهرين:

" يحيا الجيش . . . يحيا الجيش. . . "